رثاءُ آمرأةٍ لا تموتُ

شعر

عبد الرحمن يوسف

رثاء امرأة لا تموت

شعر عبد الرحمن يوسف

دار الشاعر للنشر والتوزيع

وناري بصدري تُحاولُ بالشِّعْرِ نفثًا ...
ومَنْ يَمْدَحِ الرَّاحِلاتِ يَحُثُّ الوُقُوفَ بوَجْهِ التَّقَاليدِ حَثًّا ...
أُحبُّكِ أُمِّي
حَيَاةً
ومَوْتًا
وبَعْثًا ...
ومِثْلُكِ لَيْسَ يَمُوتُ
ولَكِنَّهُ سَوْفَ يُرْثَى ...
سَأَرْثِي النِّسَاءَ جَميعًا
لأَنَّكِ أُنْثَى ...!

- نزف الحروف (شعر)
- أمام المرآة (شعر)
- في صحة الوطن (شعر)
- لا شئ عندي أخسره (شعر)
- على المكشوف (شعر)
- اكتب تاريخ المستقبل (شعر)
- حزن مرتجل (شعر)
- يوميات ثورة الصبار (مذكرات)

دار الشاعر للنشر والتوزيع

دار العلوم للنشر والتوزيع

تصميم الغلاف © حقان محمد حقان

صدر
للشاعر

رِثاءُ امْرَأَةٍ لا تَمُوت

اســـم الـــديوان: رِثاءُ امْرَأَةٍ لا تَمُوت

أشـــــــعار: الشاعر/ عبدالرحمن يوسف

الطبعـــــــة: الأولى : 1433هـ - 2012

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر ولا يجوز إعادة طبع أو اقتباس أي جزء منه بدون إذن كتابى من الناشر.

الناشـــــــر: دار الشاعر للنشر والتوزيع

18ب شارع 26 يوليو – وسط البلد - القاهرة.

ت : 0127919792 (2+)

الموقع على الإنترنت: www.arahman.net

البريد الإلكتروني: arahman@arahman.net

info@arahman.net

توزيـــــــع: دار العلوم للنشر والتوزيع

29 شارع 9 ثكنات المعادى

هاتف وفاكس : 23593918 (202+)

البريد الإلكتروني: daralaloom@hotmail.com

رقـــم الإيـــداع: 2012/14544

التـرقيم الـــدولى: ISBN: 978 -977-380 -323- 0

التجهيـزات الفنيـة: صالح عبدالعزيز 01113099885 (2+)

رثاءُ آمرأةٍ لا تموتُ

شعر

عبد الرحمن يوسف

دار الشاعر للنشر والتوزيع

دار العلوم للنشر والتوزيع

فهرس

إهداء ٧

اُنْظُرْ أَمَامَك ٩

أُحَاوِلُ فَهْمَ عَدُوِّي ١٥

أُمَمٌ هِيَ الأشْجَارُ ١٩

إفْرَاج ٢٧

لَنْ يَكْتُبَ النُّقَّادُ عَنِّي ...! ٣٣

لَوْ عَادَتِ الأيَّامُ بي ...! ٤١

مَاذَا يُرِيدُ اليَأْسُ مِنِّي ؟ ٤٧

رِثَاءُ مُحَمَّد ٥١

رِثَاءُ امْرَأَةٍ لا تَمُوت ٦١

إهداء

إلى روح أمي الحبيبة السيدة العظيمة إسعاد عبدالجواد الهرم (أم محمد) رحمها الله ...

وإلى كل الأمهات اللائي شقين من أجل تربية هذا النشء الصالح ...

عبدالرحمن يوسف

القاهرة ٢٠١٢/٧/١م

اُنْظُرْ أَمَامَك

اُنْظُرْ أَمَامَكْ ...
مَاذَا تَرَى ... ؟
رَجُلاً أَمِ امْرَأَةً ... ؟
أَمِ الأَرْضَ التي لَمْ تَنْتَبِهْ لِخُطَى الجُيُوشِ تَدُكُّ صَمْتَ تُرَابِهَا ؟
لَمْ تَنْتَبِهْ حَتَّى تَخَافَ مِنَ الجُيُوشِ
لأَنَّهَا اعْتَادَتْ خُطَاهُمْ
مَرَّ قَبْلَ الجَيْشِ أَلْفٌ مِنْ جُيُوشٍ تَرْتَدِي خُضْرَ الثِّيَابِ
وقَادَةٌ لَبِسُوا نَيَاشِينَ التَّفَوُّقِ
كُلُّ مَنْ قَدْ مَرَّ مَرَّ بِلَوْنِهِ
لَكِنَّهُمْ صَارُوا إِلى لَوْنِ اصْفِرَارِ تُرَابِهَا ...
فَانْظُرْ أَمَامَكَ خَاضِعًا مُتَوَاضِعًا
هَذَا التُّرَابُ نُعُوشْ ...
هذا التُّرَابُ جُيُوشْ ...

* * *

اُنْظُرْ أَمَامَكْ ...
وإِذَا نَطَقْتَ بِبَعْضِ شِعْرٍ فَاخْتَصِرْ

لا وَقْتَ للأَشْعَارِ
فَالأَشْعَارُ تُولَدُ في الظَّلامِ
ومَوْلِدُ الأَشْعَارِ إِيْذَانٌ بِميلادِ الصَّبَاحِ
وإِنَّ صُبْحَ الأَرْضِ أَقْبَلَ فَاخْتَصِرْ
واصْرُخْ بِحَرْفِكَ : إِيهِ هَلْ مِنْ مُدَّكِرْ ؟
لا شَكَّ في ضَوْءِ الصَّبَاحِ إِذَا أَتَى ...!
فَانْظُرْ أَمَامَكَ عَاقِلاً مُتَأَمِّلاً
سُنَنُ التَّعَوُّدِ - والتَّعَوُّدُ للعُيُونِ حِجَابْ -
عَيْنٌ تَرَى عَيْنًا ولَكِنْ لا تَرَاهَا إِنْ تَعَوَّدَتِ السَّرَابْ ...!

* * *

اُنْظُرْ أَمَامَكْ ...
مَاذَا تَرَى مِمَّنْ مَضَوْا ؟
كَمْ خَالِدًا مِنْهُمْ ؟ وَكَمْ مِنْهُمْ فَنَى ؟
مَاذَا تَرَى ؟ جُثَثًا عَلى هَذِي العُرُوشِ أَتَى أَوَانُ قُبُورِهَا ؟
لَنْ يَنْفَعَ البَارُودُ عَرْشًا مُثْقَلاً بِمُغَفَّلٍ

يَبْدُو كَمَا المُومْيَاءِ تَنْطِقُ بالهُرَاءْ ...
فَانْظُرْ أَمَامَكَ سَائِلاً مُتَسَائِلاً
سَتَرَى عَلى التَّاجِ الفَنَاءْ ...
وتَرَى التُّرَابَ لَهُ البَقَاءْ ...

* * *

اُنْظُرْ أَمَامَكْ ...
كَمْ سُلَّمًا صَعِدَتْ عُيُونُكَ كَيْ تُشَاهِدَ مَا تُشَاهِدُ
لا تُكَذِّبْ مَا رَأَتْ عَيْنَاكَ
إِنَّ الخَوْفَ يَجْعَلُ مَا تَرَاهُ مُشَوَّشًا
فَاغْلِبْ مَخَاوِفَكَ القَدِيمَةَ بالتَّجَلُّدِ
ثُمَّ حَدِّقْ كَالصَّفِيقِ بِوَجْهِ خَوْفِكَ
وانْتَظِرْ حَتَّى يَحَوِّلَ وَجْهَهُ خَوْفًا
سَتَعْرِفُ حِينَهَا أَنَّ الشَّجَاعَةَ بِذْرَةٌ

زُرِعَتْ بِقَلْبِكَ مِنْ قَدِيمِ العُمْرِ ثُمَّ رَوَيْتَهَا بِعَزِيمَتِكْ ...!

فَانْظُرْ أَمَامَكَ وَاثِقًا مُتَسَامِقًا

وَجِهْ رَاقِبْ مَصِيرَكَ وابْتَسِمْ ...!

واهْزَأْ بِخَوفِكَ واقْتَحِمْ ...!

القاهرة ٢٠١١/١/٤

٨,٠٠ مساء

أُحَاوِلُ فَهْمَ عَدُوِّي

أُحَاوِلُ فَهْمَ عَدُوِّي ...
كِلانَا أَمَامَ الرَّصَاصِ سَوَاءْ ...
فَمَاذَا يُمَيِّزُ هَذَا العَدُوَّ ؟
طَرِيقَتُهُ فِي الغِنَاءْ ؟
، َرِيقَتُهُ فِي ائْتِعَالِ السَّمَاءْ ؟
طَرِيقَتُهُ فِي التَّكَبُّرِ حِينَ يَجُرُّ الرِّدَاء
أُحَاوِلُ فَهْمَ عَدُوِّي ...
– و لَسْتُ غَبِيًّا –
و لَسْتُ أُسَلِّطُ فَوْقَ عَدُوِّي أُلُوفًا مِنَ "الكَامِرَاتِ"
صَبَاحَ مَسَاءْ ...
يُرَاقِبُ دَمْعِي عَلَى الشُّهَدَاءِ بِشِعْرِ الرِّثَاءْ ...
يُرَاقِبُ إِقْدَامَ خَطْوِي بِشِعْرِ الحَمَاسَةِ عِنْدَ الفِدَاءْ ...
يُرَاقِبُ حُرْقَةَ حَرْفِي بِشِعْرِ الهِجَاءْ ...
أُحَاوِلُ فَهْمَ عَدُوِّي القَوِيِّ بِأَسْيَافِهِ
و الدُّرُوعُ تُكَسِّرُ نَصْلِي ...
تَمَيَّزَ عَنِّي بِضِحْكَتِهِ حِينَ قَتْلِي ...

ط

؟ ٠

بِنَشْوَتِهِ حينَ يَقْطَعُ أشْجَارَ حَقْلِي ...

تَمَيَّزْتُ عَنْهُ بِأنِّي أَمُوتُ

و لَسْتُ أَمُوتُ ...!

أَغِيبُ

و لَسْتُ أَغِيبُ ...!

كَأَنَّ فَنَائي طَرِيقُ البَقَاءْ ...

أُحَاوِلُ فَهْمَ عَدُوِّي ...

جَبَانٌ ؟

غَبِيٌّ ؟

بَلِيدٌ ؟

لِمَاذَا يُهَاجِمُ ذَاكِرَتي ؟

ثُمَّ أَبْقَى ...

و مَا زَالَ يَخْشَى الفَنَاءْ ...!

تمت في القاهرة
٦,٠٠

٩/٨/ ٢٠٠٩م
مساء

أُمَمٌ هِيَ الأشْجَارُ

صَفٌّ مِنَ الأشْجَارِ مِنْ قَرْنٍ مَضَى فِي وَقْفَتِهْ ...

تَتَنَاقَلُ النَّسَمَاتُ هَمْسَتَهُ إذا هَبَّتْ

كَأنَّ الرِّيحَ هَبَّتْ كَيْ تَذُوبَ بِهَمْسَتِهْ ...

وَهَبَتْ لوَقْفَتِهِ على مَرِّ الزَّمَانِ عُيُونُ رَبِّكَ هَيْبَةً لشُمُوخِهِ

و مَحَبَّةً مِنْ رِقَّتِهْ ...

صَفٌّ مِنَ الأشْجَارِ مَغْرُوسًا كَمَا مَثَلٍ يَفيضُ بِحِكْمَتِهْ ...

تَتَنَاسَقُ الأشْجَارُ دُونَ تَدَخُّلٍ

فَتَرى بِعَيْنِكَ كَيْفَ تَحْتَرِمُ الجُذُوعُ حُدُودَهَا

و تَرَى الفُرُوعَ تَمُدُّ أَذْرُعَهَا غُصُونًا كَيْ تُزيلَ قُيُودَهَا

و إذا حَفَرْتَ بِطَرْفِ عَيْنِكَ فِي

التُّرَابِ فَسَوْفَ تُبْصِرُ ؟

كَيْفَ تَقْتَنِصُ الجُذُورُ مِسَاحَةً حَتَّى تُؤَكِّدَ للجَمِيعِ وُجُودَهَا ...

تَتَسَاقَطُ الأوْرَاقُ فِي فَصْلٍ

وفِي فَصْلٍ تُوَاصِلُ بالجُذُوعِ إلى السَّمَاءِ صُعُودَهَا ...

أُمَمٌ هي الأشْجَارُ

و الإنْسَانُ يُبْصِرُهَا جَمَادا ...

أُمَمٌ هي الأشْجَارُ إلا فِـ ـرِ

تُبْصِرُنَا و تُبْصِرُ نَفْسَهَا للّهِ أمْسَيْنَا عِبَادا ...

أُمَمٌ هي الأشْجَارُ

تَفْنَى فِي مَدَافِئِنَا شِتَاءً

ثُمَّ فِي أوْرَاقِنَا ...

أقْلامِنَا ...

تَفْنَى و تَمْنَحُنَا الوُجُودْ ...

أُمَمٌ هي الأشْجَارُ

تُهْدِينا الحَيَاةَ

و نَحْنُ نَمْنَحُهَا الفَنَاءَ مَعَ الجُحُودْ ...

* * *

صَفٌّ مِنَ الأشْجَارِ يَقْبَلُ شَامِخًا قَدَرَهْ ...

يَهَبُ الظِّلالَ بِمَوْسِمٍ ، و بِمَوْسِمٍ ثَمَرَهْ ...

صَفٌّ مِنَ الأشْجَارِ يَحْمِلُ مِنْ مَلامِحِ أهْلِ هَذِي الأرْضِ

قَاسَمَهُمْ مِيَاهَ العُمْرِ فيها قَطْرَةً قَطْرَةْ ...

صَفٌّ مِنَ الكَافُورِ مَنْذُورٌ لِدَغْدَغَةِ السَّحَابِ

و يَحْرُسُ الغَادِينَ ظُهْرًا مِنْ ضِيَاءِ الشَّمْسِ

لَكِنْ يَمْنَحُ الشُّعَرَاءَ مَنْظُورًا مَجَازِيًّا

لِنُورِ البَدْرِ كَيْ تَتَخَمَّرَ الفِكْرَةْ ...

شَجَرٌ مِنَ الزَّيْتُونِ و الجُمَّيْزِ و الأعْنَابِ

فِي كَنَفِ "الأكَاسِيَا"

حَفَّهُ النَّخْلُ المُرَابِطُ

يَمْنَحُ الأرْضَ المَلامِحَ

فَهْيَ وَجْهٌ وَاضِحُ القَسَمَاتْ ...

و لِكُلِّ بُسْتَانٍ عَدُوٌّ

يَقْطَعُ الأشْجَارَ

لا لِمَنَافِعِ الإنْسَانِ

بَلْ لِيَقُصَّ أَوْرِدَةَ الطَّبِيعَةِ في جُذُوعِ نَبَاتْ ...
مَنْ يَقْطَعُ الأشْجَارَ في أَرْضٍ
يُشَوِّهُ وَجْهَ مَخْلُوقٍ
فَيَجْدَعُ أنْفَهُ
مُبَرِّرٍ وَاهٍ مِنَ الدَّعَوَاتْ
قَطْعُ الأشْجَار ـاقِدٌ للجِد
مَجْد على العُدْوَانِ
فَهْوَ كَمَنْ يُخَرِّبُ لَوْحَةً
لِمُجَرَّدِ الإيذَاءِ
لا يَقْوَى يُوَاجِهُ حُسْنَهَا باللَّوْنِ و الفُرْشَاةْ ...!
لا يَقْطَعُ الأشْجَارَ كَيْ يَبْنِي جِدَارًا
غَيْرُ مَنْبُوذٍ و مَكْرُوهٍ مِنَ الأرْضِ التي
وَلَدَتْ شُجَيْرَاتِ " الأَرُوكَاريا"
لتَمْنَحَ للشَّوَاطِئِ في " أثينا "
بَعْضَ أبْنَاءِ العُمُومَةِ في رُبَا " بَيْرُوتَ "
أو في " القُدْسِ "

كَيْ لا يَشْعُرَ المَلاحُ بالإحْبَاطِ إنْ طَالَتْ بِهِ الرِّحْلاتْ ...
لا يَقْطَعُ الأشْجَارَ إلا عَابِرٌ
عَادٍ
؟
يُفَكِّرُ مِثْلَ بَلْطَةِ حَاطِبٍ مُتَعَجْرِفٍ
تَلْهُو بِهِ النَّزَوَاتْ ...
و يَرُدُّ صَوْلَةَ بَلْطَةِ العُدْوَانِ صَوْتٌ وَاثِقُ النَّبَرَاتْ :
" لا تَقْطَعُوا الأشْجَارَ فَهْيَ هُنَا تُسَبِّحُ
للسَّمَاءِ بمَيْلِهَا و كَأَنَّهَا صَلَوَاتْ ...
لا تَقْطَعُوا الأشْجَارَ
أيْنَ سَيَكْتُبُ العُشَّاقُ سِيرَتَهُمْ ؟
و أيْنَ سَيَنْقُشُ البُسَطَاءُ أمْجَادًا ؟
(و جُدْرَانُ المَعَابِدِ – مِثْلَمَا نَدْري جَميعًا – شَاشَةُ السُّلْطَةْ) !
لا تَقْطَعُوا الأشْجَارَ إنَّ غُرُورَكُمْ حِطَّةْ ...!"
لا تَقْطَعُوا الأشْجَارَ ...
صَوْتٌ مُسْتَمِرٌّ
واثِقٌ

و قَصِيدَتي تَمْضِي لآخِرِهَا بلا غَلْطَةْ ...
قَطَعَ الغُرُورُ الجِذْعَ – طَبْعًا –
هَلْ رَأَيْتَ شُجَيْرَةً مِنْ قَبْلُ يَوْمًا أقْنَعَتْ بَلْطَةْ ..؟

* * *

لَنْ أَتْرُكَ الفَصْلَ الأخِيرَ لبَلْطَةٍ يَلْهُو بِهَا نَكِرَةْ ...
سَأَخُطُّ فِي يَوْمٍ يَجِيءُ قَصِيدَةً أُخْرَى بِهَا طِفْلٌ
– سَيَكْبُرُ قَبْلَ أنْ تَفْنَى القَصِيدَةُ –
لَنْ يُقَدِّمَ للحَبِيبَةِ مَهْرَهَا ذَهَبًا
ولَكِنْ سَوْفَ يَزْرَعُ مُخْلِصًا مِنْ أجْلِهَا
شَجَرَةْ ...!

بدأت في القاهرة ١٧ / ٦ / ٢٠٠٩
٢,٠٠ صباحـا

لا يـ

ـُولُ

إفْـرَاج

هاَ قَدْ خَرَجْتَ مِنَ الجَحِيمِ إلى الجَحِيمِ

كَكَوْكَبٍ في ذي السَّمَاءِ مُواصِلاً دَوَرَانَه ْ...

النَّاسُ تَمْشِي في الشَّوَارِعِ مِثْلَمَا وَدَّعْتَهَمْ – لا وَدَّعُوكَ –

لِسَانُهُمْ في ذِكْرِهِ سُبْحَانَهْ ...

وعُقُولُهُمْ في الحَانَةْ ...!

اللَّيْلَةُ الأُولى بِسِجْنِكَ بِتَّ فيها خَائفًا

واليَوْمَ تَبْدُو في فِرَاشِكَ خَائفًا

وكَأَنَّ بَيْتَكَ صَارَ ذاكَ السِّجْنَ ثُمَّ خُطِفْتَ

لِلْبَيْتِ الذي هُوَ سِجْنُكَ الأَصْلِيُّ

فَارْحَمْ عَقْلَكَ المَصْلُوبَ في تِلْكَ المُقَارَنَةِ

البَغِيضَةِ للأَبَدْ !

السِّجْنُ عَلَّمَكَ الجَلَدْ ...

والبَيْتُ سِجْنٌ بِتَّ فيهِ بلا كَمَدْ ...

تَمْضي السُّنُونُ – وأَنْتَ فيهِ – بلا عَدَدْ ...

حَاوِلْ مُمَارَسَةَ الحَيَاةِ كَمَا تَعَوَّدْتَ

التَّفَاصيلُ الصَّغيرَةُ دائمًا

تُعْطِي الحيَاةَ إِدَانَةْ ...!
أتَشْكُّ في جَدْوى المَسِيرَةْ !
يَا أَيُّهَا الحرُّ الذي كَانَتْ إِقَامَتُهُ بِذَاكَ السِّجْنِ
مُشْكِلَةً عَسيرَةْ ...
عُدْ للحيَاةِ بِدُشِّ مَاءٍ سَاخِنٍ
بِعَشَاءِ بَيْتٍ دَافِئٍ
رَاقِبْ تَفَاعُلَ رُوحِكَ العَذْرَاءِ مَعْ تِلْكَ التَّفَاصيلِ الصَّغيرةِ
كَيْفَ يَبْدُو المَشْيُ في تِلْكَ الشَّوَارِعِ
مِثْلَ مُعْجِزَةٍ كَبيرَةْ ...!
رَاقِبْ شُرُوقَ الشَّمْسِ ثُمَّ غُرُوبَهَا
واذْكُرْ ظَلامًا كَانَ فيهِ مُحَرَّمًا لَوْنُ الضِّيَاءْ
واذْكُرْ حَنِينَكَ نَحْوَ شَرْبَةِ مَاءْ ...
الآنَ آلامُ الحيَاةِ تَبَرَّجَتْ
مِثْلَ الرَّبيعِ إِذَا تَنَفَّسَ نَاشِرًا أَلْوَانَهْ ...!
كَالنَّايِ يَنْفُخُ في الدُّجَى أَلْحَانَهْ ...!

* * *

هَا قَدْ خَرَجْتَ مِنَ الظَّلامِ إلى الظَّلامِ
كَنَهْرِ خَيْرٍ في البلادِ مُوَاصِلاً جَرَيَانَهْ ...!
مَازالَ مَجْرَى النَّهْرِ يَعْرِفُ أَنَّ وَقْفَ مَسِيلِ
هَذا المَاءِ مَحْضُ خِيَانَةْ ...!
مَا سِعْرُ كُلِّ دَقيقَةٍ في السِّجْنِ قَدْ مَرَّتْ تُرى؟
لا سِعْرَ للأَيَّامِ ...
لَكِنْ ...
أَنْتَ تَعْلَمُ في الحِكَايَاتِ القَدِيمَةْ ...
أَنَّ التَّزَلُّفَ للطُّغَاةِ جَرِيمَةْ ...
لا سِعْرَ لِلأَيَّامِ جَوْفَ السِّجْنِ
لَكِنْ
تُصْبِحُ الأَيَّامُ قِيمَةْ ...!
جَرِّبْ مُمَارَسَةَ الأُمُورِ كَمَا تُرِيدُ
بِدُونِ قَيْدٍ
مِثْلَ أَنْ تَمْشِي بِهَاتِيكَ الشَّوَارِعِ
أَنْ تُمَارِسَ أَيَّ شَيْءٍ مِنْ تَفَاصيلِ الحيَاةِ المُمْتِعَاتِ

كَكَأْسِ خَمْرٍ ...
أَوْ صَلاةِ الفَجْرِ ...
أو حَتَّى ارْتِدَاءِ "مَنَامَةٍ" ثُمَّ التَّمَدُّدِ في الفِرَاشِ
أوِ التَّأمُّلِ في الفَضَاءْ ...
أوِ التَّضَرُّعِ للسَّمَاءْ ...
أوِ التَّأَمُّلِ في الخَلاءْ ...
أو التَّقَدُّمِ نَحْوَ مَعْرَكَةِ البَقَاءْ ...
في ذلكَ المَقْهَى دَخَلْتَ وأَلْفُ وَجْهٍ بَاسِمٍ
يَسْتَقْبِلُونَكَ
"أَلْفُ حَمْدٍ للسَّلامَةِ"
أَنْتَ مُبْتَسِمٌ ومُضْطَرٌّ لذلكَ
أَمْ تُرَاكَ تَخَافُ تَجْهَرُ بالبُصَاقِ بِوَجْهِهِمْ ...؟
أَتُرَاكَ تَرْغَبُ أَنْ تَرَاهُمْ يُدْفَعُونَ لِحَتْفِهِمْ ؟
أَتُرَاكَ تَعْلَمُ أَنَّهُمْ مُسْتَمْتِعُونَ بِذُلِّهِمْ ؟
قَدْ وَفَّقُوا أَوْضَاعَهَمْ طِبْقًا لِكُلِّ إِهَانَةْ ...!
السِّجْنُ دَنْدَنَةُ الغُمُوضِ بَدَتْ بِقَدْرِ وُضُوحِهَا

تُعْطِي لِشِعْرِكَ في الحيَاةِ مَكَانَةْ ...
السِّجْنُ أَرْضٌ لاكْتِشَافَاتِ الحَقَائِقِ
واحْتِرَاقَاتِ الدَّقَائِقِ
والخُرُوجِ مِنَ الشَّرَانِقِ
كَالحِصَانِ إذا تَرَكْتَ عِنَانَهْ ...
هَا قَدْ خَرَجْتَ مِنَ القُيُودِ إلى القُيُودْ ...
أَتُريدُ حَقًّا أَنْ تَعُودْ ...!
أَعَرَفْتَ مَا مَعْنى الصُّمُودْ ؟
هَا قَدْ خَرَجْتَ
وبِتَّ تُبْصِرُ في الخُرُوجِ اليَوْمَ شِبْهَ إِدَانَةْ ...
السِّجْنُ في عُنُقِ
والا

القاهرة مايو ٢٠٠٦

٤

لَنْ يَكْتُبَ النُّقَّادُ عَنِّي ...!

لَنْ يَكْتُبَ النُّقَّادُ عَنِّي ...

فَالمواَضِيعُ التي قَدْ صُغْتُ مِنْهَا جُلَّ أشْعَارِي يَرَاهَا النَّقْدُ

قَدْ قُتِلَتْ قَصِيدًا

و المواَضِيعُ التي قَدْ تُعْجِبُ النُّقَّادَ

تَجْعَلُني أَصُوغُ الشِّعْرَ في مَدْحِ السُّكُوتْ ...!

لَنْ يَكْتُبَ النُّقَّادُ عَنِّي ...

فَالحدَاثِيُّونَ تَلْسَعُهُمْ بُهَارَاتُ اقْتِبَاسِي مِنْ قَدِيمِ القَوْلِ

و الغَاوُونَ للشِّعْرِ القَدِيمِ يَسُوءُهُمْ قَفْزي عَلى بَعْضِ القَوَاعِدِ

كَالغَزَالِ يَدُوسُ – لا عَمْدًا ولا سَهْوًا – بِقَفْزَتِهِ بُيُوتَ

العَنْكَبُوتْ ...

لَنْ يَكْتُبَ النُّقَّادُ عَنِّي ...

حَيْثُ إنَّ الشِّعْرَ في أنْظَارِهِمْ سِرْبٌ مِنَ الكَرَوَانِ

قَدْ قُطِعَتْ حَنَاجِرُهُ

و إنَّ الشِّعْرَ في نَظَري خُلُودُ نَشِيدَةِ الكَرَوَانِ لَحْنًا لا يَمُوتْ ...

لَنْ يَكْتُبَ النُّقَّادُ عَنِّي ...

حِكْمَةً ...

أو خَوْفَ خُوذَةِ ضَابِطٍ ...

وحِ

جَبْراً (و حينًا باخْتِيَارٍ)

ـهِ

كَمْ بَدَا سَدُّ الذَّرَائِعِ مَبْدَءًا في النَّقْدِ

يَجْلُبُ بَعْضَ قُوتْ ...!

لَنْ يَكْتُبَ النُّقَّادُ عَنِّي ...

فَالقَصِيدَةُ حِينَ تَبْدَأُ بازْدِرَاءِ النَّقْدِ

ثُمَّ تُعَيِّرُ السُّلْطَانَ في صَلَفٍ بِعُنَّتِهِ

و تُبْرِزُ كُلَّ أشْلاءِ الضَّحَايَا في وُجُوهِ القَوْمِ

تُصْبِحُ حِكْمَةً لا يَمْلِكُ النُّقَّادُ حِكْمَةَ فَهْمِهَا

فَكَأَنَّ كُلَّ عَمَائِمِ النَّقْدِ الكَبِيرَةِ قَدْ بَدَتْ صِنَّارَةً

لا شَكَّ يَعْجَزُ خَيْطُهَا عَنْ صَيْدِ حُوتْ ...!

* * *

أَرَى النَّقْـدَ يُمْـدَحُ مَـعْ بُخْلِـهِ

و شِـعْري يُـذَمُّ علـى بَذْلِـهِ

أَرَى النَّقْـدَ طَفَّـفَ مِكْيَـالَ حَقِّـي

و قَـدْ يُطْعَـنُ المَـرْءُ مِـنْ أهْلِـهِ

و سَـيْفِي لأهْلِـيَ ... لَكِـنْ عَلَـيْهِمْ

فَلَسْـتُ لأقْـوَى عَلـى صَـقْلِهِ

و جَهْـلُ القَرِيـبِ يُمِيـتُ ، وكَيْـفَ

يُـلامُ جَهُـولٌ عَلـى جَهْلِـهِ ؟

إذا كُنْـتَ سَـمْحًا فَعِـشْ سَـيِّدًا

فَكُـلٌّ يَعُـودُ إلى أصْـلِهِ

و أَكْـرَهُ مَـنْ صَـعَّرَ الخَـدَّ كِبْـرًا

و أَكْـرَهُ مَـنْ عَـاشَ في ذُلِّـهِ

قَتَلْتُ عَدُوِّي ، ولَكِنْ خَلِيلي

فَلَسْتُ لأقْوَى على قَتْلِهِ

قَتَلْتُ غُرُورِيَ لا كِبْرِيَائِي

بِسَيْفِ التَّوَاضُعِ مَعْ فِعْلِهِ

سَوْهَرُ مِثْلي جَلِيٌّ ، وَلَكِنْ

يُذَمُّ و يُمْدَحُ مِنْ شَكْلِهِ

و رُبَّ حَقُودٍ عَلى الشُّعَرَاءِ

يَمُوتُ على النَّثْرِ مِنْ غِلِّهِ

هُوَ الشِّعْرُ دَرْبُ خَلاصٍ وَحِيدٌ

أَبِيتُ أُحِنُّ إلى وَصْلِهِ

فَإنْ جَاءَ صِرْتُ كَطَيْرٍ طَلِيقٍ

يُحَلِّقُ يَقْتَاتُ مِنْ حَقْلِهِ

و إنْ عَزَّ أَحْرَجْتُهُ بانْتِظَاري

فَيَأْتِي إليَّ عَلى مَهْلِهِ

أُعَلِّلُ حُبِّي لَهُ بِجُنُونِي

و لَيْسَ بِكَافٍ لِتَعْلِيلِهِ

فَلَسْتُ لأَهْجُرَهُ إنْ سَلاني

و إنْ جَاءَ أُرْهِقْتُ مِنْ حَمْلِهِ

أُؤَجِّلُ كُلَّ فُرُوضِ حَيَاتي

لأَقْضِيَ الأَمَاسِيَّ فِي نَفْلِهِ

هُوَ الشِّعْرُ ... هَمٌّ ثَقِيلٌ لَذِيذٌ

أَمُوتُ و أَحْيَا عَلى نَصْلِهِ !

* * *

صَعْبٌ على مِثْلِي مُجَامَلَةُ الرِّيَاسَةِ بالمَدِيحِ أو السُّكُوتِ
أو الهجَاءِ الرَّخْوِ
وجِ
إرْضَاءً لِزَهْوِ مُجَنَّدٍ مَا هَزَّ أَلْيَتَهُ سِوى لِيَدُكَّنَا
مِنْ أَجْلِ إرْضَاءٍ لضَابِطِ خَيْبَةٍ يَبْدُو عَلَيْهِ رَاكِبًا
مِنْ أَجْلِ إرْضَاءٍ لسَادَتِهِ الذينَ عَلَيْهِ قَدْ رَكِبُوا
بَقَى الكُلُّ مَرْكُوبًا سِوى فَرْدٍ بَغِيضْ
سَسْتُ أ ِي على حُلُمِ النَّهَارِ بِعَصْرِ لَي
لي والحِكَايَةُ بَيْتُ شِعْرٍ يَسْتَفِزُّ مِنَ النَّقِيضِ إلى النَّقِيض ...!
أ سَهْلٌ عَلَى غَيْرِي التَّدَافُعُ للمَوائِدِ بالقَصَائِدِ
مِثْلَ جُرْذَانِ السَّفِينَةِ تَحْفِرُ
الأنْفَاقَ كَيْ يَهْوِي الجَمِيعُ مِنَ الحَضِيضِ إلى الحَضِيضْ ...
صَعْبٌ على غَيْرِي مُنَافَسَةُ الزَّلازِلِ و الرُّعُودِ
بِمَا تَيَسَّرَ مِنْ قَرِيضْ ...
سَهْلٌ عَلَيَّ – و قَدْ تَحَرَّرَتِ القَصِيدَةُ مِنْ قُيُودِ الخَوْفِ –

أَنْ أَهْجُو المُلُوكَ وسَائِرَ النُّقَّادِ مِثْلَ غُثَاءِ سَيْلٍ فِي مَفِيضْ ...!

* * *

يَا سَاكِبَ الأَلْحَانِ فِي سَمْعِ الخَلِيقَةِ
خُذْ بِدَوْرَقِكَ النُّحَاسِيِّ المُخَلَّدِ بَعْضَ فَنِّي ...
يَا سَاكِبَ الأَشْعَارِ فِي دِيوَانِ حَرْفِ الضَّادِ
لي مَجْدٌ يُخَبِّئُهُ الزَّمَانُ بِرَغْمِ ظَنِّي ...
قَدْ يُسْرِفُ النُّقَّادُ فِي تَمْجِيدِ أَقْزَامٍ
وقَدْ تَتَقَطَّعُ الأَوْتَارُ فِي كَفِّ المُغَنِّي ...
لَكِنْ سَيَبْقَى الشِّعْرُ فِي نَظَرِي
ابْتِسَامَةَ مَاكِرٍ تُغْرِي القَصِيدَةَ بالتَّمَنِّي ...
أَنَا زَامِرُ الحَيِّ الذي يَشْدُو بلا أَيِّ افْتِعَالٍ أَوْ مُدَاهَنَةٍ
لذَلِكَ قَدْ قَنَعْتُ بِأَنَّنِي
لَنْ يَكْتُبَ النُّقَادُ عَنِّي ... !

القاهرة ١٤/ ٢٠٠٩/٥
٣,٠٠ صباحًا

لَوْ عَادَتِ الأيَّامُ بي ...!

لَوْ عَادَتِ الأيَّامُ بي ...
حَتْمًا سَأَكْتُبُ بَعْضَ أبْيَاتٍ لأَمْدَحَ عَوْدَهَا
– فَالعَوْدُ أحْمَدُ ! –
والحَيَاةُ إذا أُتيحَتْ مَرَّتَيْنِ فَذَاكَ أمْرٌ يَسْتَحِقُّ تَوَقُّفًا بالمَدْحِ
لَكِنِّي سَأَنْسَى المَدْحَ بَعْدَ تَعَوُّدي عَوْدَ الحَيَاةْ ...
لَوْ عَادَتِ الأيَّامُ بي ...
هَلْ تِلْكَ تَبْدو فُرْصَةً مُنِحَتْ لتَحْسِينِ الأدَاءِ ...؟
أمِ النَّتيجَةُ سَوْفَ تَبْقَى ذَاتَهَا ...؟
وَقْتٌ يَمُرُّ كَسَاعَةٍ رَمْلِيَّةٍ كَفٌّ تُقَلِّبُهَا لتُفْرِغَ رَمْلَهَا
لا فَرْقَ في تَرْتيبِ سَيْرِ تَسَاقُطِ الحَبَّاتْ ...!
لَوْ عَادَتِ الأيَّامُ بي ...
أتُرَى سَأخْتَصِرُ المَسَافَةَ بَيْنَ أوْتَاري و ألحَاني
لأظْفَرَ بالغِنَاءِ مُشَذَّبًا مِنْ كُلِّ لَغْوٍ
أمْ تُرى سَتَصيرُ أُغْنيتي بُكَاءً دُونَ دَمْعٍ ...؟
دُرْوَةً مِنْ دُونِ تَهْيِئَةِ المَسَامِعِ للنَّشيدِ أو النَّشيجِ ...؟
نَتيجَةً مِنْ دُونِ أيِّ مُقَدِّمَاتٍ مُقْنِعَاتْ ...؟!

لَوْ عَادَتِ الأيَّامُ بي ...
سَأُجيبُ كُلَّ تَسَاؤُلٍ بتَسَاؤُلٍ ...
– فالطَّبْعُ يَغْلِبُ رَغْمَ تِكْرَارِ التَّجَارِبِ –
وَفْ أمْدَحُ مَنْ مَدَحْتُ
وَفْ أهْجُو مَنْ هـ
و سَوْفَ أعْشَقُ مَنْ عَشِقْتُ برِحْلَتي مِنْ سَيِّدَات ...
و لَوْ عَادَتِ الأيَّامُ ...
هَلْ سَأسيرُ في الغيطَانِ
كَيْ أتَسَلَّقَ الجُمَّيْزَةَ الأولى التي قَدْ أسْقَطَتْني واهِنًا مِنْ
فَوْقِهَا ...؟
أتُرَى سَأدْخُلُ ذلك القَبْوَ الذي فيهِ اخْتَبَأْتُ
وفيهِ قَدْ قَابَلْتُ وَجْهَ الخَوْفِ أوَّلَ مَرَّةٍ
حينَ اسْتَمَعْتُ لصَوْتِ زَحْفِ الجُرْذِ في الظُّلُمَاتْ ...؟
لَوْ عَادَتِ الأيَّامُ بي ...
سَأظَلُّ إنْسَانًا
و سَوْفَ أُكَرِّرُ الأخْطَاءَ في صَلَفٍ

سَأقْفِزُ مِثْلَمَا السِّنْجَابِ فَوْقَ السُّورِ
ثُمَّ أَطيرُ مثلَ الصَّقْرِ
كَيْ أزْهُو كَمَا الطَّاوُوسِ في وَقْتِ الظَّهيرَةِ
عِنْدَ مَدْرَسَةِ البَنَاتْ ...!
لَوْ عَادَتِ الأيَّامُ ...
سَوْفَ أُشَيِّدُ الأحْلامَ طَوْدًا
ثُمَّ أرْجِعُ للسَّريرِ بدَمْعَتي ومَعِي فُتَاتْ ...
لَوْ عَادَتِ الأيَّامُ بي ...
لَنْ أعْلَمَ الغَيْبَ المُخَبَّأَ
كَيْ أرَى قَنَّاصَ أحْلامِ الطُّفُولَةِ
رَابضًا ومُصَوِّبًا نَحْوي عَلامَاتِ البُلُوغِ
و لَنْ أرى مَا خَلْفَ جُدْرَانِ الزَّمَانِ
مِنَ الأُمُورِ الواضِحَاتْ ...
لَوْ عَادَتِ الأيَّامُ بي ...
سَأُطِلُّ مِنْ نَفْسِ النَّوَافِذِ
كَيْ أرَى نَفْسَ المَشَاهِدِ

ثُمَّ أرْسُمَ نَفْسَ لَوْحَتِيَ التي قَدْ أعْجَبَتْ كُثْرًا
و لَمْ تُعْجِبْ كثيرًا
مِنْ أُلُوفِ النَّاظِرينَ و مِنْ أُلُوفِ النَّاظِرَاتْ ...
لَوْ عَادَتِ الأيَّامُ بي ...
سَأسيرُ فَوْقَ جَميعِ خُطْوَاتي
فَلَسْتُ بنَادِمٍ ...
و إعَادَةُ الأيَّامِ تَجْعَلُني أرى مُسْتَقْبَلي
مُسْتَقْبَلاً مِنْ ذِكْرَيَاتْ ...!

تمت في القاهر إبريل / ٢٠٠٩

وجـ

ـهِ

مَاذَا يُرِيدُ اليَأْسُ مِنِّي ؟

مَاذَا يُرِيدُ اليَأْسُ مِنِّي ...
غَيْرَ أَوْهَامٍ تَرَى فِي اليَأْسِ سَيِّدَنَا
لِكَيْ تَتَحَوَّلَ الأَفْكَارُ دِيدَانًا بِرَأْسِ الطَّامِحِينَ إِلى النَّقَاءْ ...؟
اليَأْسُ مَوْجُودٌ
يُرَاوِدُنَا عَنِ الأَمَلِ المُصَفَّفِ
فِي دَفَاتِرِنَا وفِي أَشْعَارِنَا
وكَأَنَّهُ رُسُلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ تَدْعُو للجِنَانِ
كَأَنَّهُ فِي اللَّيْلِ رَائِحَةُ الخَبِيزِ
تَزُورُ حَيًّا جَائِعًا بِجِوَارِ قَصْرٍ لَيْسَ يَسْمَعُ
عَنْ مُعَانَاةِ الفَقِيرِ مِنَ الغَلاءْ ...!
مَاذَا يُرِيدُ اليَأْسُ مِنِّي غَيْرَ إِسْمَاعِي
صُرَاخَ حَنَاجِرِ الصُّبْحِ المُقَاوِمِ
رَغْمَ سِكِّينِ الفَنَاءْ ...؟
أَنَا لَسْتُ مَغْرُورًا
ولَكِنْ
هَلْ يَرَانِي اليَأْسُ إِنْسَانًا مُهِمًّا ؟

هَلْ يَرَى غَيْرِي مِنَ البَشَرِ الضِّعَافِ مُهَمَّشِينَ
لكَيْ يُهَاجِمَنِي أَنَا ؟
سَيَقُولُ : "قَدْ هَاجَمْتُ كُلَّ النَّاسِ واسْتَمْلَكْتُهُمْ" !
سَأَقُولُ : " قَدْ هَاجَمْتَ كُلَّ النَّاسِ
واسْتَمْلَكْتَ مَا اسْتَمْلَكْتَ "
لا تَفْخَرْ ...!
مَاذَا يُرِيدُ اليَأْسُ مِنِّي ...
سَوْفَ يَزْعُمُ أَنَّ كُلَّ أَحِبَّتِي غَدَرُوا
وأَنَّ جَمِيعَ مَنْ أَبْغَضْتُهُمْ قَدَرُوا ...
مَاذَا يُرِيدُ اليَأْسُ مِنِّي ...
غَيْرَ كَسْرِي
ثُمَّ حَصْرِي
ثُمَّ عَصْرِي
هَلْ يُرِيدُ قَصِيدَةً فِي مَدْحِهِ ؟
أَمْ هَلْ يُرِيدُ قَصِيدَةً تَهْجُو الأَمَلْ ؟
أَنَا لَيْسَ مِنْ طَبْعِي أُكَافِئُهُ على هَجْمَاتِهِ

ولَوَ انَّنِي أَبْصَرْتُ فيهِ تَخَلُّصًا مِنْ رَغْبَتِي
فِي عِشْقِ مَا أَهْوَاهُ فِي دَرْبِي
إِذًا لَعَشِقْتُهُ ...!
مَاذَا يُرِيدُ اليَأْسُ مِنِّي ...
لَسْتُ أَدْرِي
لا يَهُمُّ
فَلَسْتُ أُعْطِي اليَأْسَ مَا يَبْغِي
ولَكِنْ
سَوْفَ أَنْزِعُ مِنْهُ أَسْنَانًا يُهَدِّدُنِي بِهَا
وأَصُفُّهَا عِقْدًا بُدَائِيًّا
ليَعْتَبِرَ الذينَ أُحِبُّهُمْ ...!

القاهرة ٢٠١٠/١٢/٢٠

وجـ

ـهِ

رِثَاء حُمَّد (*)

تَعَوَّدْتُ أَرْثِي الكِرَامْ ...
وشِعْري إِذَا مَا رَثَيْتُ يُجَمِّعُ كُلَّ دُمُوعِ المُحِبِّينَ فِي دَمْعَةٍ مِنْ
كَلامْ ...!
تَعَوَّدْتُ أَعْجِنُ دَمْعَ الرِّثَاءِ بِطِينِ الهجَاءِ
وأَقْذِفُهُ لقُصُورِ الظَّلامْ ...
تَعَوَّدْتُ مَعْ كُلِّ مَوْتٍ – كَمَا تَعْلَمُونَ – أُسَائِلُ نَفْسِي
عَنِ السِّرِّ فِي قِصَرِ العُمْرِ لابْنِ الحَلالِ
وطُولِ التَّمَدُّدِ لابْنِ الحَرَامْ ...!
تَعَوَّدْتُ مَعْ كُلِّ مَوْتٍ أرى الأَمْرَ قَتْلاً صَرِيحًا يُطَالِبُنَا بانْتِقَامْ ...
أَنَا نَائِبٌ عَنْكُمُو حينَ أبْكِي قَرِيضًا
يُؤَدِّي إلى الرَّاحِلِينَ السَّلامْ ...
أَنَا نَائِبٌ عَنْكُمُو حينَ أَهْجُو الذينَ يَزِيدُ بِهِمْ مَوْتُنَا
ويَطُولُ بتَقْتِيلِنَا عُمْرُهُمْ فِي كَرَاسِيِّ حُكْمِ الإِمَارَةِ
رَغْمَ جَمِيعِ الأَنَامْ ...
أَنَا نَائِبٌ عَنْكُمُو حينَ أَشْحَذُ سَيْفَ الهجَاءِ بمِبْرَدِ فَنِّ الرِّثَاءِ
لنُظْهِرَ للرَّاحِلِينَ طُقُوسَ احْتِرَامْ ...

(*) رثاء المفكرالمصري الكبير الدكتور محمد السيد سعيد

فَلا يَعْجَبَنَّ كَرِيمٌ مِنَ الكُرَمَاءِ بِخَلْطِ الرِّثَاءِ الرَّقِيقِ
بِبَعْضِ الهِجَاءِ الصَّفِيقِ
فَذَلِكَ فَنٌّ جَدِيدٌ
أُسَجِّلُهُ اليَوْمَ باسْمِ الكِرَامِ بِأَرْضِ الكِنَانَةِ جَهْرًا
كَبَدْرِ التَّمَامْ ...
ولَسْتُ المُخَيَّرَ فِي كُلِّ ذَاكَ
ولكِنَّنِي قَدْ نُدِبْتُ لكَيْ أَتَسَاءَلَ مَعْ كُلِّ مَوْتٍ
لماذَا يَمُوتُ بِمِصْرَ الذينَ نُرِيدُ لَهُمْ أَنْ يَعِيشُوا
ويَبْقَى اللِّئَامْ ...؟

* * *

إذا كَانَ مِنْ أَهْلِ الخَنَا مَنْ تُخَاصِمُــهْ
لَعَمْـرُكَ لَـنْ تُجْـدِي الكَـرِيمَ مَكَارِمُـــهْ
ولَيْسَ بعَيْبٍ أَنْ تَرَى الكَلْبَ حَاكِمــًا
بَـلِ العَيْـبُ تَلْقَـى الشَّـعْبَ لَـيْسَ يُقَاوِمُـــهْ

بِمِصْرَ يَمُوتُ المَوْتُ والشَّعْبُ خَالِـــدٌ
فَتَبْقَـى لَـهُ الحُسْـنَى وتُنْسَـى هَزَائِمُـــهْ
سِوَانَا يَهَابُ المَوْتَ حينَ يَـــزُورُهُ
ونَحْـنُ يَفِـرُّ المَـوْتُ حـينَ نُدَاهِمُـــهْ
بِمِصْرَ يَعِيشُ الشَّعْبُ قصَّةَ خُلْـــدِهِ
ويَهْلِـكُ فِي قَصْـرِ الخِيَانَـةِ حَاكِمُـــهْ
فَيَبْقَى برَغْمِ الدَّهْرِ طِيبُ فِعَالِنَـــا
وحَاكِمُنَـا بـالخِزْيِ تَبْقَـى جَرَائِمُـــهْ
ويَنْفُذُ أَمْـرُ الدَّهْرِ فِي كُلِّ أُمَّـــةٍ
ونَحْـنُ مَـعَ الـدَّهْرِ الفَقِـيرِ نُسَاوِمُـــهْ
ويَنْفُـذُ حُكْـمُ المَـوْتِ خَـارِجَ أَرْضِنَـــا
وفِي مِصْـرَ أَهْـرَامُ الجُـدُودِ تُحَاكِمُـــهْ

نُعَلِّمُ أحْفَادَ الحَفِيدِ صُمُودَنَـــــــا

وتُنْقَـلُ مِـنْ جَـدِّ الجُـدُودِ عَظَائِمُـــــــهْ

تَزِيدُ بِدَرْبِ الحَقِّ فِينَا فَضَائِـــــــلٌ

وحَاكِمُنَـا بالسُّـحْتِ زَادَتْ دَرَاهِمُـــــــهْ

فَيَرْفَـعُ بَيْـتَ العَنْكَبُـوتِ بِمَالِـــــــهِ

وللشَّـعْبِ صَـرْخٌ لا تُهَـزُّ دَعَائِمُـــــــهْ

وإِنَّا لَشَعْبٌ يَهْزِمُ الظُّلْمَ صَبْـــــــرُهُ

يُطَـاوِلُ أَيُّوبًـا بـهِ ويُعَاظِمُـــــــهْ

فَيَصْبِرُ إِنْ كَانَ النَّفِيرُ مَذَمَّـــــــةً

ويَضْـرِبُ إِنْ كَـانَ الزَّمَـانُ يُوَائِمُـــــــهْ

فَكُنْ مِثْلَ حَدِّ السَّيْفِ فِي غِمْدِ فَارِسٍ

يُسَـالِمُ كُـلَّ النَّـاسِ حِـينَ تُسَالِمُـــــــهْ

وكُنْ مِثْلَ حَدِّ السَّيْفِ يُشْرِقُ قَاتِـلاً

إذا جَـاءَ رِعْدِيـدُ الظَّـلامِ يُهَاجِمُـــــــهْ

مِصْرَ تَرَى شَعْبًا يُؤَدِّبُ حَاكِمًـــــا

يُجِـ لُـهُ حينًـا و حينًـا يُشَاتِمُـــــــهْ

يُخَلِّدُ حُكَّامًا ، ونَقْتُلُ بَعْضَهُـــمْ

وكُـلٌّ بـذي الـدُّنْيَا لَـهُ مَـا يُلائِمُـــــــهْ

تَرَانَا كَخَيْلِ العِزِّ إِنْ هَبَّ جَامِحًـــا

عَلَـى سَـقْفِ قَصْـرِ الظُّلْـمِ دَبَّـتْ قَوَائِمُـــهْ

نُسَايِرُهُ بالصَّمْتِ ثُمَّ نَجُـــــــرُّهُ

إلى سَـاحَةِ الإِعْـدَامِ فـاللهُ قَاصِمُـــــــهْ

فَتَسْـقُطُ رَأْسُ الكَلْـبِ عِنْـدَ حِذَائِنَـــا

ويُتْـرَكُ مِـنْ أجْـلِ الشَّـمَاتَةِ خَادِمُـــــــهْ

* * *

مُحَمَّدُ ...
أَنْتَ احْتِرَامُ اليَمِينِ و أَنْتَ انْبِعَاثُ اليَسَارِ الذي لَمْ تَخُنْهْ ...
مُحَمَّدُ ...
لَسْتُ أَقُولُ لِكُلِّ المُحِبِّينَ حَسْبُكَ مَا كُنْتَهُ بَلْ أَقُولُ لَهُمْ
إِنَّ حَسْبَكَ مَا كُنْتَهُ
وكذلكَ حَسْبُكَ مَا لَمْ تَكُنْهْ ...!
ولَمْ تَكُ يَوْمًا بَذِيئًا ولَمْ تَكُ يَوْمًا نَسِيّا ...
ولَمْ تَكُ يَوْمًا رَخِيصًا ولَمْ تَكُ يَوْمًا غَنِيّا ...
ولَمْ تَكُ فِي مَوْكِبِ العُهْرِ شَاهِدَ زُورٍ
ولَمْ تَكُ يَوْمًا شَقِيّا ...
ولَمْ تَكُ حِينَ تُعَدُّ الدَّنَانيرُ للخَائِنِينَ صَفِيّا ...
ولَمْ تَكُ يَوْمًا دَعِيّا ...
ولَمْ تَكُ يَوْمًا خَصِيّا ...
فَعِشْتَ بِرُؤْيَةِ أَهْلِ اليَسَارِ نَبِيّا ...!
ومِتَّ بِرُؤْيَةِ أَهْلِ اليَمينِ رَضِيّا ...!

* * *

تُجَمِّعُنَا اليَوْمَ مِنْ كُلِّ لَوْنٍ لنَخْلُقَ قَوْسَ قُزَحْ ...
تُجَمِّعُنَا مِثْلَمَا كُنْتَ تَفْعَلُ دَوْمًا لنَعْزِفَ لَحْنَ الفَرَحْ ...
مُحَمَّدُ أَنْتَ الدَّليلْ ...
و أَنْتَ الذي قَدْ رَسَمْتَ "البَديلْ" ...
وأَنْتَ الهُدُوءُ الجَميلْ ...
وأَنْتَ مُبَشِّرُنَا بانْتِهَاءِ الظَّلامِ الطَّويلْ ...
وأَنْتَ الذي فِي الخِصَامِ نَبيلْ ...
مُحَمَّدُ ...
فِكْرُكَ فِي بَاطِنِ الأَرْضِ جِذْرٌ
وفَوْقَ السَّمَاءِ يَلوحُ كَمَا سَعَفٍ للنَّخِيلْ ...
مُحَمَّدُ ...
فَالنِّيلُ يَرْنُو إِلَيْكَ كَطِفْلٍ يُؤَدِّي السَّلامَ لِشَيْخٍ جَليلْ ...!

* * *

أَقُولُ خِتَامًا :
رِثَاؤُكَ أَمْرٌ ثَقيلٌ كَريهْ ...!
أَقُولُ لَكُمْ ولِكُلِّ بَنِيهْ ...
قَضَى عُمْرَهُ فِي ادِّخَارِ الضِّيَاءِ ليَذْكُرَهُ مَنْ يَلِيهْ ...

مَوَائِدُهُ لَمْ تَزَلْ عَامِرَاتٍ لِيَأْكُلَ منْهَا الوَجيهْ
ويَأْكُلُ مِنْهَا السَّفِيهْ ...
مَسِيرَتُهُ أَثْقَلَتْ عَاذِليهْ ...!
وسِيرَتُهُ أَثْكَلَتْ قَاتِليهْ ...!

تمت في القاهرة ٢٠٠٩/١١/١١

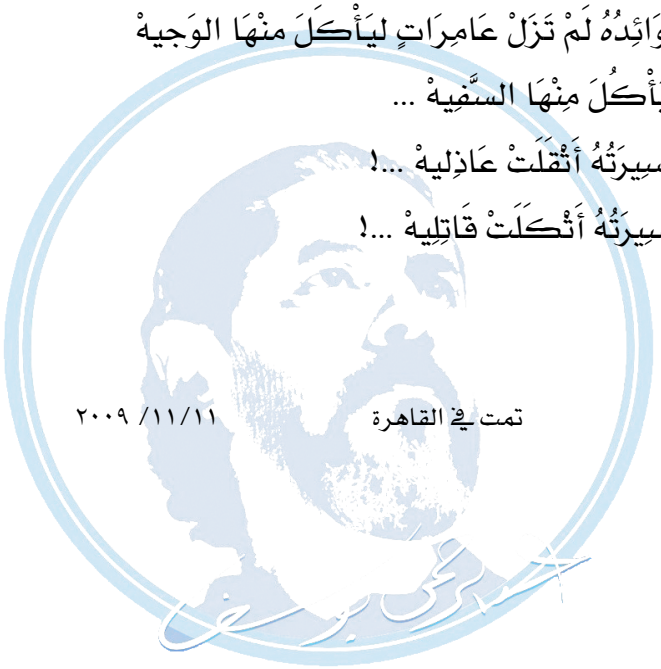

رِثَاءُ امْرَأَةٍ لا تَمُوت

بين يدي القصيدة

تُوُفِّيَتْ أُمِّي الحَبيبةُ رَحِمَهَا اللّٰهُ في ظَهيرةِ يومِ الخَميسِ ٢١/يونيو/٢٠١٢، وكانَ ذلكَ في مَدينةِ الدَّوْحَةِ بقَطَر، عَنْ عُمْرٍ تَجَاوَزَ الثَّالثَةَ والسَّبْعينَ.

أقولُ تُوُفِّيَتْ، ولا أقولُ رَحَلَتْ، لأنها رَحَلَتْ عَنْ عالمِنا هذا قَبْلَ ذلك التَّاريخِ بعِدَّةِ أَعْوَامٍ، فَقَدْ شَاءَتْ إرادَةُ اللّٰه سبحانَهُ أنْ يَرْفَعَ مِنْ دَرَجَاتها عندَهُ بأَنِ ابْتَلاها بمَرَضِ "الزَّهَايْمَر"، فأصْبَحَتْ حاضِرَةً غائبَةً، أو أصبَحَتْ تحضُرُ حينًا وتغيبُ حينًا، ومع الأيامِ أَصْبَحَ الغيابُ أكثرَ مِنَ الحُضُورِ، وللّٰهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ، ولَهُ الحَمْدُ على كُلِّ حَالٍ.

في ذلك الوقتِ أَيْقَنْتُ أَنَّ الإنسانَ ما هو إلا ذاكرةٌ، وأَنَّ الإنسانَ بلا ذاكرةٍ يُصْبِحُ كَيْنُونَةً أُخْرى غَيْرَ كَيْنُونَتِهِ، وسَلْبُ الذَّاكِرَةِ مَوْتٌ حقيقيٌ لا مَجَازِيٌّ، يَنْطَبِقُ ذلك على الأفرادِ والجَماعاتِ، وقَدْ رَأَيْتُهُ رَأْيَ عَيْنٍ في أَحَبِّ الناسِ إلى قلبي.

لذلكَ حينَ بَدَأْتُ كتابةَ هَذِهِ القَصيدةِ لَمْ أَكُنْ أرَ المَوْتَ شَكْلا وحيدًا للرَّحيلِ، بَلْ كُنْتُ أَعْرِفُ تمامًا أَنَّ

الرَّحيلَ قَدْ يَكُونُ برَحيلِ ذَاكِرَةِ الإنْسانِ، وأَنَّ الإنْسانَ مِنَ المُمْكِنِ أَنْ يَرْحَلَ وَهْوَ على قَيْدِ الحَيَاةِ (وحينَهَا مِنَ المُمْكِنِ بلْ مِنَ الواجبِ رِثَاؤُهُ!)، كما أنهُ مِنَ المُمْكِنِ أَنْ يبقى حيًّا أَبَدَ الدَّهْرِ وإنْ مَاتَ وقُبِرَ (وحينها يكونُ الرِّثَاءُ مُجَرَّدَ مَرَاسِمِ وداعٍ)!

كَتَبْتُ هَذِهِ القَصيدةَ في رِثَاءِ أُمِّي بعدَ أَنْ بَدَأَ رحيلُهَا (بسَلْبِ الذَّاكِرَةِ)، وقبْلَ أَنْ يَتَوَفَّاهَا اللّهُ (بالمَوْتِ)، وكُنْتُ أَكْتُمُ هَذِهِ المَشَاعِرَ عَنْ أبي وإخْوَتي، ولَمْ أُصَارِحْ أَحَدًا بكِتابةِ هَذِهِ القَصيدةِ إلا بَعْدَ وَفَاةِ أُمِّي رَحِمَهَا اللّهُ، وقَدْ يَسْتَغْرِبُ القارئُ مِنْ هذا الفِعْلِ الذي قَدْ يُحْسَبُ مِنْ بَابِ الفَأْلِ السَيِّءِ، فَقَدْ كُتِبَتْ هذه القصيدةُ في ديسمبر ٢٠٠٧، أيْ قبلَ الوَفَاةِ بحوالَيْ أَرْبَعِ سَنواتٍ، ولكنَّ الحقيقةَ أنَّ الشَّاعِرَ لا يَمْلِكُ أنْ يَمْنَعَ القصيدةَ أو أنْ يسمحَ لها، فَهْيَ أَشْبَهُ بطُلُوعِ الشَّمْسِ أو غُرُوبِهَا، فهي كالظَّوَاهِرِ الكَوْنِيَّةِ التي لا يستطيعُ الإنسانُ لها جَلْبًا ولا دَفْعًا، لذلك حينَ تَدَفَّقَتْ هذهِ القَصيدةُ لَمْ أَمْلِكْ سِوى أَنْ أَكْتُبَهَا، وقَدْ تَمَّتْ في حَوَالَيْ أُسْبُوعَيْنِ، وهو زَمَنٌ قياسِيٌّ بالنِّسْبَةِ لحَجْمِهَا.

مِنْ عَجَائِبِ مِا حَدَثَ لي أنَّني بَكَيْتُ أُمِّي كثيرًا في أَثْنَاءِ كتابةِ هَذِهِ القصيدةِ، ولكنني لَمْ أَبْكِ حينَ تَوَفَّاهَا اللّهُ، ولَيْسَ ذلكَ بَقَصْدٍ مني في الحالتَيْنِ.

ولا شَكَّ أنَّنا في مجتمعاتنا العَرَبيةِ والشَّرقيةِ مَا زِلْنَا نَظْلِمُ النِّسَاءَ، نَظْلِمُ أُمَّهَاتِنَا وزَوْجَاتنا وأَخَوَاتِنَا وبَنَاتِنَا، نَظْلِمُهُنَّ بقَصْدٍ وبدونِ قَصْدٍ، ومِنَ المُمْكِنِ أَنْ نَظْلِمَهُنَّ ونَحْنُ نَظُنُّ أنَّنا نُحْسِنُ صُنْعًا، وأَنَّنَا نَتَقَرَّبُ بذلك إلى اللّهِ، تَعَالى اللّهُ عَنْ الظُّلْمِ عُلُوًّا كَبيرًا.

كَانَتْ أُمِّي رَحِمَهَا اللّهُ مِنْ جيلٍ فريدٍ مِنَ النِّسَاءِ، جيلٍ دَيْدَنُهُ العَطاءُ، ووُجُودُهُ يَعْتَمِدُ على أَنْ يُسْعِدَ الآخرينَ، فَهي لا تَبْتَهِجُ إلا بإِسْعَادِ زَوْجِهَا وأَبْنَائِها وأُسْرَتِهَا، فَكَانَ لها مِنَ اسْمِها أَكْبَرُ نصيبٍ، فهي "إِسْعاد"، وكانَتْ مَصْدَرَ إِسْعَادٍ لكلِّ مَنْ حَوْلَهَا.

شَاءَ اللّهُ أَنْ يَمُدَّ في عُمُرِها، فَأَهْدَتْ من ثمارِ حكمَتِهَا ثَلاثَةَ أَجْيالٍ، فَرَبَّتِ الأَبْنَاءَ، والأَحْفَادَ، وبَعْضَ أَبْنَاءِ الأَحْفَادِ.

هَذِهِ قصيدةٌ أُحَاوِلُ أَنْ أَرْثِيَ بهَا كُلَّ نساءِ الدُّنْيا، إِكْرَامًا لامْرَأَةٍ عَظيمةٍ ... هِيَ أُمِّي ...!

أَسْأَلُ اللّهَ لَهَا الرَّحْمَةَ والمَغْفِرَةَ، ولكُلِّ الأُمَّهَاتِ ...

عبد الرحمن يوسف

القاهرة ٢٠١٢/٧/١م

(١)

عِلى شَفَةِ المَجْدِ بَيْتٌ مِنَ الشِّعْرِ
فيهِ مَديحٌ لأُمِّي التي لَمْ تَكُنْ ذَاتَ يَوْمٍ لِتَرْفَعَ مَجْدًا لَهَا
لَيْسَ فيهِ شَريكٌ مِنَ الزَّوْجِ أو مِنْ سُلالَتِهَا اللُّؤْلُؤِيَّةِ
فيهِ مَديحٌ لأُمِّي التي ما تَبَقَّى لها أَيُّ شَيْءٍ بِدُونِ شَريكٍ
سِوى بَعْضِ ما تَقْتَني مِنْ أَساوِرَ فَهْوَ لَهَا
(فَهْوَ ذَوْقٌ قَديمٌ ولَنْ يَسْتَطيعَ سِوَاهَا ارْتِدَاءً لَهُ)
لَيْسَ تَمْلُكُ مَجْدًا لَهَا وَحْدَهَا
قَسَّمَتْ كُلَّ شَيْءٍ على قِسْمَةِ الحُبِّ — رَّعْ
بَيْنَ البَنَاتِ وبَيْنَ البَنين ...
وبَيْنَ مُرُورِ السِّنِينْ ...
وبَيْنَ العِنَايَةِ بالحَاضِرِينْ ...
وبَيْنَ التَّشَوُّقِ للغَائِبِينْ ...
وبَيْنَ التَّأَكُّدِ مِنْ أَنَّ مَا مَلَكَتْهُ تَوَزَّعَ بالعَدْلِ بَيْنَ الجَميعِ
فَتَبْقَى ولا مَجْدَ خُطَّ عليهِ اسْمُهَا
قَدْ تَفَرَّقَ ما بَيْنَ أَمْجَادِ تِلْكَ السُّلالَةِ
مَجْدٌ لأُمِّي ...!

(٢)

أُحَاوِلُ حَتَّ خَيالي لتَحْقيقِ بَعْضِ الأَماني ...
وتَجْميلَ صَعْبِ المعَاني بسَهْلِ المباني ...
وتَوْظِيفَ بَعْضِ الرُّمُوزِ المُضيئةِ في ظُلُمَاتِ قَصيدٍ يُعاني ...
وتَفْسيرَ بَعْضِ غُمُوضِ اللُّحُونِ لكَيْ تَسْتَقِرَّ الأَغَاني ...
وتَجْريدَ بَعْضٍ مِنَ الوَقْتِ كَيْ تَسْتَفيقَ النَّوَاني ...
أُحَاوِلُ أَنْ أَسْتَجيبَ لِرَغْبَةِ سَرْدِي ...
وتَطْويعَ صَمْتِ الشِّتَاءِ لِزَعْقَةِ رَعْدِي ...
أُحَاوِلُ أَنْظُرُ في عَيْنِ حُزْنِيَ نِدًّا لِنِدٍّ ...!

(٣)

عَلى شَفَةِ الشِّعْرِ دَمْعٌ على وَزْنِ كُلِّ البُحُورِ
بِهِ يَنْظِمُ الحُزْنُ لَطْمِيَّةً تَسْتَفِزُّ أَيَادِي الحَجِيجِ
لِضَرْبِ الصُّدُورِ
وكُلُّ المَرَاقِدِ عَبْرَ العُصُورِ تَشَرَّبَتِ الدَّمْعَ
كَيْ أَسْتَعِيرَ تَرَاكُمَ تِلْكَ الشُّجُونِ لأَكْتُبَ سَطْرًا مِنَ الشِّعْرِ

يَبْكِي على ظُلْمِ أُمِّي
التي لَمْ تُقَصِّرْ بِتَجْهِيزِ حُلْوِ الشَّطَائِرِ للذَّاهِبِينَ إلى الدَّرْسِ
عَبْرَ السَّنِينَ
ولَمْ تَدَّخِرْ جَهْدَهَا كَيْ تُوَثِّقَ ذِكْرَى طُفُولَةِ كُلِّ السُّلالَةِ
لَمْ تَبْكِ يَوْمًا بِحَضْرَتِنَا كَيْ تَظَلَّ السَّعَادَةُ طَيْرًا يَحُطُّ على
كَتِفِ البَيْتِ
لَمْ تَدَّخِرْ طَاقَةً للزَّغَارِيدِ عِنْدَ النَّجَاحِ
و عِنْدَ الزَّوَاجِ
و عِنْدَ خِتَانِ الحَفِيدِ
ولَمْ تَبْكِ بالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ دَمْعَ النِّسَاءِ سِلاحٌ قَدِيمٌ مُبَاحٌ
لِكَيْ لا تُسَوِّغَ إِشْهَارَ هَذَا السِّلاحِ لِتِلْكَ السُّلالَةِ
لَمْ تَبْكِ إلا بُعَيْدَ تَأَكُّدِهَا مِنْ سَعَادَةِ كُلِّ السُّلالَةِ
لَمْ تَبْكِ إلا قُبَيْلَ الرَّحِيلْ ...!

(٤)

أُحَاوِلُ أَحْرُثُ أَرْضَ القَصِيدِ
لِتَنْبُتَ بَعْضُ الوُرُودِ ...
وشَطْبَ سُطُورِ المَمَاتِ

لِيُولَدَ حَرْفُ الوُجُودِ ...
وحَفْرَ مَسِيلٍ لِمَاءٍ
لِيَمْلأَ ما خَلْفَ تِلْكَ السُّدُودِ ...
ورَسْمَ طَرِيقٍ لِعَقْلِيَ
كَيْ يَسْتَفِزَّ قُيُودِي ...
وخَلْقَ سُؤَالٍ جَدِيدٍ
لِيَبْعَثَ مَوْتَ رُدُودِي ...
وتَحْدِيدَ أَهْدَافِ تِلْكَ القَصِيدَةِ
كَيْ لا تَضِيعَ جُهُودِي ...!

(٥)

تَوَارُدُ بَعْضِ الخَوَاطِرِ بَيْنِي وبَيْنَ مَلاكِ المَوَاتِ
يُؤَكِّدُ أَنَّ احْتِمَالَ الحَيَاةِ لِجِنْسِ النِّسَاءِ ضَعِيفٌ ...
ضَعِيفٌ ...
ضَعِيفٌ ...
أَمَامَ احْتِمَالِ المَمَاتِ ...
فَلَيْسَ لِذِهْنِيَ أَيُّ فَضِيلَةِ سَبْقٍ
إِذَا لَمَحَ السَّيْلَ يَجْرِفُ قَرْيَةَ شُؤْمٍ بِمَجْرَى خُطَى السَّيْلِ

لَيْسَ لِذِهْنِيَ سَبْقٌ إِذَا مَا تَنَبَّأَ
أَنَّ السَّفينَ بلا بوصْلَةٍ سَتَتُوهُ
وَأَنَّ ارْتِطَامَ السَّفينَةِ بالقَاعِ
حَتْمًا سَيَحْدُثُ بَعْدَ الغَرَقْ ...
مَدِيحُ الجُدُودِ لِزَرْقَاءِ أَرْضِ اليَمَامَةِ لَهْوٌ
وَأَوْلَى بِهِمْ ذَمُّ عُمْيَانِ تِلْكَ القَبيلَةِ
(كَانُوا ذُكُورًا وَزَرْقَاءُ أُنْثَى) ...!
تَرَى شَجَرًا للأَمَامِ يَسيرُ ...
مَدِيحُ النِّسَاءِ سَيُعْفِي جُدُودي الذُّكُورَ مِنَ الذَّمِّ
كَيْ تَسْتَمِرَّ الحَيَاةُ ...
نِسَاءً تَرَى ...
ورِجَالاً تَعَامَتْ عَنِ الرَّعْدِ مَهْمَا زَعَقْ ...
ذُكُورُ القَبيلَةِ تَحْكُمُ كَيْفَ اتَّفَقْ ...!
وزَرْقَاءُ كُلِّ القَبَائِلِ تَصْرُخُ مُنْذُ القَديمِ
لَعَلَّ الذُّكُورَ تُحَاذِرُ مِنْ ظُلُمَاتِ النَّفَقْ ...!

(٦)

أُحَاوِلُ أَلَّا أُسَلِّمَ قَلْبي إلى رَغْبَتي في اللِّقَاءِ ...
وأَلَّا يَطُولَ بهَذَا المُقَامِ بَقَائي ...
وأَلَّا أُوَاجِهَ قَبْلَ الأَوَانِ فَنَائِي ...
وأَلَّا أُغَيِّرَ في ظُلُمَاتِ الزَّمَانِ وَلائي ...
وأَلَّا أُحَكِّمَ ظُلْمَ الرُّجُولَةِ فِيَّ بِعَدْلِ طِبَاعِ النِّسَاءِ ...
وأَلَّا أُسَطِّرَ قَبْلَ الرَّحيلِ رِثَائِي ...!

(٧)

أُرَاقُ على سُلَّمِ الشَّدْوِ مَاءً حَزينًا على العَتَبَاتِ ...
أُرَاقُ على مَسْمَعِ الضَّاحِكِينَ مَقَامًا فَرِيدًا
يُغَرِّدُ بَيْنَ الصَّبَا والبَيَاتِي ...
أَنَا مَنْ يَزِيدُ الرِّثَاءَ رِثَاءً ...
كَلَطْمِيَّةٍ تَتَرَدَّدُ بَعْدَ قُرُونٍ
تُخَلِّدُ حُزْنًا تَفَجَّرَ قَبْلَ
وعِنْدَ
وبَعْدَ الوَفَاةِ ...

أَنَا المُسْتَزِيدُ مِنَ المَوْتِ عَبْرَ المَجَازِ
وعَبْرَ الحَقِيقَةِ
عَبْرَ السَّلِيقَةِ
عَبْرَ القَرِيضِ
وعَبْرَ الشَّتَاتِ ...
أُرَاقُ رِثَاءً يُذَكِّرُني بِجَفَافِ الوُرُودِ على الشُّرُفَاتِ ...

(٨)

شُعَاعًا أَنَا صِرْتُ
يَا مَصْدَرَ الضَّوْءِ
يَا مَوْئِلَ الضَّوْءِ ...
صَوْتًا أَنَا صِرْتُ
يَا مَصْدَرَ الصَّوْتِ
يَا مَرْجِعَ الصَّوْتِ ...
لَوْنًا أَنَا صِرْتُ
يَا مَنْشَأَ اللَّوْنِ
يَا مَهْبِطَ اللَّوْنِ ...
نَبْتًا أَنَا صِرْتُ

يَا مَنْبِتَ اللَّوْنِ
يَا مَشْتَلَ النَّبْتِ ...
نَارًا أَنَا صِرْتُ
يَا مَقْدَحَ النَّارِ
يَا مَصْهَرَ النَّارِ ...
مَجْرًى أَنَا صِرْتُ
يَا مَنْبَعَ النَّهْرِ
يَا كُلَّ هَذي الخُيُولِ التي لَوَّنَتْ كَلِمَاتي ...
رِثَاؤُكِ يَبْدُو رِثَاءَ الحَيَاةِ ...
رِثَاءً تَدَفَّقَ بالحُزْنِ لا بالمَمَاتِ ...

(٩)

على طَرَفِ الشِّعْرِ يَسْكُنُ رَكْبُ الرَّحيلِ ...
ونَفْسٌ تَحِنُّ إلى المُسْتَحيلِ ...
ووَجْهُكِ – قَبْلَ تَعَكُّرِ مَاءِ الحَيَاةِ – يَطُوفُ شِرَاعًا جَسُورًا
يُجَمِّلُ رَسْمَةَ نِيلي ...
ووَجْهُكِ – قَبْلَ امْتِلاءِ كُؤُوسِ الوَسَاوِسِ – فَاضَ شَبَابًا
كَأَنَّ التَّجَاعيدَ كَانَتْ بعَيْنِي أَنَا

لا بِوَجْهِكِ ذَاكَ الجَمِيلِ ...
ووَجْهُكِ – قَبْلَ انْقِرَاضِ الطُّفُولَةِ فِيَّ – يُحَوِّلُنِي رَمْزَ جيلي ...
ووَجْهُكِ – قَبْلَ انْقِضَاضِ السَّكَاكِينِ عُمْرًا وحُزْنًا–
يَلُوحُ كَدِرْعٍ
بِهِ أَحْتَمِي مِنْ زَمَانِي العَلِيلِ ...
ووَجْهُكِ – بَعْدَ انْقِضَاضِ الدُّكُورِ – يُعَيِّرُنِي
بِسُلُوكِي الذَّلِيلِ ...!
أُحِبُّكِ
لَكِنْ
بِشَرْطِ الدُّكُورَةِ
مَا كُنْتُ أَعْلَمُ – أَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ ؟! – أَنَّ المَحَبَّةَ
شَرْطُ الرُّجُولَةِ
والحُبُّ دُونَ شُرُوطٍ
يُسَمَّى عَطَاءَ النِّسَاءِ ...!
أُحِبُّكِ
لَكِنْ
بِوَقْتِ الفَرَاغِ

ومَا كُنْتُ أَعْلَمُ – أَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ ؟! – أَنَّ جَمِيعَ المَشَاغِلِ
تَأْتِي دَوَامًا بِوَقْتِ الفَرَاغِ
وَجُلُّ المَشَاغِلِ مَحْضُ ادِّعَاءِ ...
أُحِبُّكِ
حُبَّ اضْطِرَارٍ
وأَنْتِ تُحبِّينَ حُبَّ اخْتِيَارٍ وحُبَّ اضْطِرَارٍ
ومَا كُنْتُ أَعْلَمُ – واللهِ مَا كُنْتُ أَعْلَمُ –
أَنَّ اضْطِرَارِي بِحُبِّكِ
كَانَ اخْتِيارًا لِهَجْوِيَ عِنْدَ الرِّثَاءِ ...

(١٠)

على حَائِطِ البَيْتِ أَبْصَرْتُ صُورَتَكِ
اسْتَأْتُ حينَ رَأَيْتُ عَلَيْهَا شَرِيطَ سَوَادْ ...
يَئِنُّ الإِطَارُ
كَأَنَّ الإِطَارَ المُذَهَّبَ أَدْرَكَ رَمْزَ الحِدَادْ ...
فَقُمْتُ
وَأَنْزَلْتُ مِنْ فَوْقِ كُلِّ جِدَارٍ بِبَيْتِيَ كُلَّ تَصَاوِيرَ فيهَا

ذُكُورٌ غِلاظٌ شِدَادْ ...
لَقَدْ حَمَلَتْنَا بُطُونُ النِّسَاءْ ...
ومِنْ بَعْدُ قَدْ وَلَدَتْنَا النِّسَاءْ ...
لِنَرْضَعَ مِنْ ثَدْيِ تِلْكَ النِّسَاءْ ...
ونَكْبُرُ في حِضْنِ تِلْكَ النِّسَاءْ ...
ونُنْسَبُ – يا لَلتَّجَبُّرِ – لاسْمِ ذَكَرْ ...!
ونَرْفَعُ في بَهْوِ كُلِّ البُيُوتِ لِتِلْكَ الذُّكُورِ الصُّوَرْ ...!
غَفَوْتُ
لَبي بِصُورَةِ أُمِّي تَعَلَّقَ
وَهْيَ مُعَلَّقَةٌ فَوْقَ ذَاكَ الجِدَار ...
وَجَدْتُ مَلائِكَةَ البَعْثِ نَادَتْ عليَّ
وتَنْسِبُنِي – يا لَعَدْلِ الإلَهِ – لأُمِّي ...!
أَفَقْتُ
وعَيْنِي على وَجْهِ أُمِّيَ فَوْقَ الجِدَارْ ...
ومَا زَالَ يَبْدُو شَرِيطُ السَّوَادْ ...!

(١١)

رَفَعْتُ إلى اللّهِ كَفِّي لأَدْعُو بِصَمْتٍ
لأَنِّيَ لَمْ أَسْتَطِعْ نُطْقَ ذَاكَ الدُّعَاءْ ...

بأَيِّ قِنَاعٍ أُقَابِلُ رَبِّي ؟
بأَيِّ سُفُورِ الخَطَايا أُوَاجِهُ رَبِّي ؟
أَيَقْبَلُ رَبِّي تَرَحُّمَ جِنْسِ الذُّكُورِ الغِلاظِ على طُهْرِ هَذي النِّسَاءْ ؟
تَعَلَّمْتُ في حِضْنِ أُمِّي الأُمُومَةْ ...
وكُرْهَ الحُكُومَةْ ...
وكَيْفَ أُوَالي – لِصَدِّ الغَرِيبِ – أَخِي والعُمُومَةْ ...
وكَيْفَ مَقَامُ الأُبُوَّةِ يَبْقَى عَزِيزًا
– وإِنْ جَارَ – كاللَّيْلِ يَرْمِي بِكِبْرٍ نُجُومَهْ ...
وقَدْ عَلَّمَتْنِي نُصُوصُ شُيُوخِ القَبِيلَةِ
أَلاَّ أُصَدِّقَ أُمِّي إِذَا عَلَّمَتْنِي اسْتِقَامَةَ ضِلْعِ النِّسَاءْ ...
ورَأْيِ النِّسَاءْ ...
إلهي
أَغِثْنِي
بِأَيِّ دُمُوعِ التَّمَاسِيحِ آخُذُ فيها العَزَاءْ ...؟!

(١٢)

تُعَلِّمُنَا الأُمَّهَاتُ طِبَاعَ الذُّكُورِ
لِكَيْ لا تَثُورَ الضَّغَائِنُ بَيْنَ الكِبَارِ وبَيْنَ الصِّغَارِ

لأَجْلِ الأُمُورِ الصَّغِيرَةِ (كَالأُمَّهَاتِ أوِ الأَخَوَاتِ!)
فَيَقْبَلْنَ تَعْلِيمَنَا أَنَّنَا بالذُّكُورَةِ أَقْوى
وأَنَّ القِوَامَةَ أَمْرٌ مِنَ اللّهِ جَاءَ لِكَيْ تَسْتَقِيمَ الحَيَاةُ
وإِنْ ما سَأَلْنَا حُدُودَ القِوَامَةِ
تَحْكِي لَنَا قِصَّةَ الذِّئْبِ والبِنْتِ
ثُمَّ كَبُرْنَا وصِرْنَا ذِئَابَا ...!

(١٣)

تُطَارِدُني في مَسَائِيَ عَبْرَةْ ...
فَأَرْكُضُ خَوْفًا (نا في الأَمَامِ
وأ رْكُض لْفِ أَبْد
أُطَارِدُ فِكْرَة ...
أُطَارِدُ فِكْرَةَ أَنِّي أُمَارِسُ صَلْبَ ضَمِيري
لِكَيْ أَتَطَهَّرَ عَبْرَ القَصِيدةْ ...
يُطَاوِعُنِي السَّرْدُ حينًا
وَحينًا يَضِنُّ عَلَيَّ بِأَيِّ مَعَانٍ جَدِيدَةْ ...
تُطَارِدُني عَبْرَةٌ

ثُمَّ تُمْسِكُ رُوحِي بِخِبْرَةْ ...
فَيَفْقِدُ دَمْعِيَ صَبْرَهْ ...
عَرَفْتُ – لأَنِّيَ طُورِدْتُ حينًا – مُعَانَاةَ أُمِّي الفَقِيدَةْ ...
قَضَتْ عُمْرَهَا في الهُمُومِ وَحيدَةْ ...
وَمَاتَتْ طَرِيدَةْ ...!

(١٤)

إِذَا مَرِضَ اللَّيْلُ فالصُّبْحُ قَدْ يَسْتَطِيعُ شِفَاءَهْ ...
وإِنْ مَرِضَ الصُّبْحُ
فَاللَّيْلُ سَوْفَ يَزِيدُ عَنَاءَهْ ...
إذا مَا تَكَبَّرَ صُبْحٌ على اللَّيْلِ حِينًا بِفَضْلِ الإِضَاءَةْ ...
فَكَيْفَ يَرُدُّ المَسَاءُ الإِسَاءَةْ ؟
إِذَا مَا تَعَلَّمَ نُورُ الصَّبَاحِ البَذَاءَةْ ...
فَسَوْفَ يَظَلُّ المَسَاءُ مَلِيكًا لَهُ دَوْلَةٌ
ذَاتُ تَاجٍ
يَجُرُّ عَلَيْهَا رِدَاءَهْ ...!

(١٥)

أُنَادِيكِ فِي القَبْرِ
صَوْتِي سَحَابْ ...
فَتَسْقُطُ مِنْهُ الحُرُوفُ كَغَيْثٍ
على صَفَحَاتِ كِتَابْ ...
أُنَادِيكِ أَيْقُونَةً للنِّدَاءْ ...
ونَبْرَةَ شَوْقٍ بِصَوْتِ الحُدَاءْ ...
أُنَادِيكِ آيَةَ دَمْعٍ بِسِفْرِ العَذَابْ ...
أُنَادِيكِ
كَيْفَ أُكَفِّرُ عَنْ صَمْتِ صَوْتِي؟
وإِنِّي أُنَادِيكِ فِي القَبْرِ صَوْتِي بُكَاءُ رَبَابْ ...
سَأَزْرَعُ نَفْسِي كَشَاهِدِ قَبْرٍ بِهَذَا التُّرَابْ ...!

(١٦)

رَفَضْتُ الدُّمُوعَ لأَنَّ الدُّمُوعَ – كَمَا قَدْ قَرَأْتُ بِكُلِّ نُصُوصِ القَبِيلَة –

لَيْسَتْ تَلِيقُ بِطَبْعِ الذُّكُورِ
فَهُمْ – قَدَّرَ اللّٰهُ – أَهْلُ القِيَادَةْ ...
سِلاحُ النِّسَاءِ الدُّمُوعُ
و
س
تِ
س
ب
بُ
س
أَ
وَ
أَ

حَقا أَصِيلا لِكلِ الذكورِ لإِثباتِ مَعْنَى السِيَادَة ...
سِلاحُ النِّسَاءِ الدُّمُوعُ
سِلاحٌ لَهُ شَفْرَتَانِ
فَأَوَّلُهَا يَقْطَعُ البَاكِيَاتِ

وآخِرُهَا لَيْسَ يُجْدِي
لأَنَّ الذُّكُورَ تُوَاجِهُهُ بدُرُوعِ البَلادَةْ ...
لِذَاكَ رَفَضْتُ الدُّمُوعَ
لأَنَّ دُمُوعِي تُصَنَّفُ ضِمْنَ دُمُوعِ الذُّكُورِ
تُرَى هَلْ دُمُوعُ الذُّكُورِ سَعَادَةْ ...؟

(١٧)

أ ُحِسُّ بِأَنْ الرِّجَالَ تَمَاثِيلُ عَمْيَاءُ
لا ي ُتَوَقَّعُ مِنْ مِثْلِهَا أ ْ يَر
ولكِنَّهَا قَدْ تَرَى فِي النِّسَاءِ الذي يُشْتَ ...!

(١٨)

أُمَشِّطُ شَعْرَ القَصِيدَةِ والرِّيحُ شَعَّثَتِ الكَلِمَاتِ التي صُغْتُهَا
مِنْ خِلالِ ثُقُوبِ الظَّلامِ
أُمَشِّطُ شَعْرَ القَصِيدَةِ كَيْ أَتَذَكَّرَ أُمِّي التي مَشَّطَتْ
شَعْرَ أَبْنَائِهَا فِي الطُّفُولَةِ
مَا قَصَّرَتْ

فَهْيَ كَانَتْ مُؤَسِّسَةَ الحُسْنِ فِي بَيْتِنَا
وَهْيَ كَانَتْ جِهَازًا لِكَشْفِ الخَبَائِثِ
كَانَتْ رِدَاءَ الشِّتَاءِ
ونِسْمَةَ صَيْفٍ
ومِقْصَلَةَ اليَأْسِ إِنْ دَبَّ يَأْسٌ بِأَيِّ المَسِيرَاتِ
كَانَتْ ضَمَانَ التَّفَوُّقِ
مِبْرَدَ كُلِّ سُيُوفِ السُّلالَةِ ضِدَّ جَمِيعِ جُيُوشِ الأَعَادِي
ومَا فَرَّقَتْ – حِينَ كَانَتْ تُمَشِّطُ شَعْرَ الجَمِيعِ بِمِشْطٍ مِنَ
العَاجِ – بَيْنَ الذُّكُورِ
وبَيْنَ الإِنَاثِ
سِوى جَدْلِ بَعْضِ الضَّفَائِرِ كَيْ لا تَصِيحَ الإِنَاثُ !!!
أُمَشِّطُ شَعْرَ القَصِيدَةِ
لَكِنْ
نَسِيتُ أُمَشِّطُ شَعْرِيَ مِنْ بَعْدِ أُمِّي !

(١٩)

أُحَاوِلُ كَنْسَ تُرَابِ التَّقَالِيدِ مِنْ فَوْقِ بَهْوِ الذُّكُورَةِ
كَيْ يَسْتَعِيدَ بَهَاءَهْ ...!

أُحَاوِلُ تَعْرِيفَ ذَاتي بِمَا قَدْ تَأَكَّدَ لي رَأْيَ عَيْنْ ...
أُحَاوِلُ أَنْ أَتَمَثَّلَ مَعْنَى الرُّجُولَةِ مِنْ صَقْرِ شَارِبِ جَدِّيَ
وَهْوَ – أَنَا أَقْصِدُ الصَّقْرَ – مَحْضُ افْتِرَاضٍ
يُزَيِّنُ صُورَةَ جَدِّي القَدِيمَةَ يَزْهُو بِهَا بالعَبَاءَةْ ...
لَقَدْ كَانَ جَدِّيَ زِينَةَ كُلِّ الرِّجَالِ
فَثَارَ على الظُّلْمِ
حَارَبَ ضِدَّ الغُزَاةِ
كَمَا قَدْ رَوَتْ ضَرْبَةُ السَّيْفِ في جَبْهَةٍ كَاللُّجَيْنْ ...
أُحَاوِلُ حَصْرَ الفُرُوقِ العَدِيدَةِ بَيْنَ الرِّجَالِ وبَيْنَ الذُّكُورِ
وبَيْنَ التَّسَامِي وبَيْنَ الدَّنَاءَةْ ...
أُحَاوِلُ تَصْحِيحَ مَعْنَى الرُّجُولَةِ عَبْرَ الزَّمَانِ
كَتِمْثَالِ عَاجٍ يَنَامُ على بَيْضَتَيْنْ ...
لَقَدْ كَانَ جَدِّيَ زَيْنَ الرِّجَالِ أَمَامَ جَمِيعِ الرِّجَالِ
ولَكِنَّهُ كَانَ يَبْدُو – بِرَغْمِ جَمِيعِ الفَضَائِلِ –
رَبًّا تَحَكَّمَ في زَوْجَتَيْنْ ...
وَمَعْ عَبَثِ الدَّهْرِ ضَاعَتْ فَضَائِلُ جَدِّيَ جيلاً فَجِيلاً
ولَمْ يَبْقَ غَيْرُ شَوَارِبِهِ والعَبَاءَةْ ...!

سَتَهْتِفُ ضِدِّي دُكُورُ السُّلالَةِ حَتْمًا
بِتُهْمَةِ نَشْرِ الإِسَاءَةْ ...!

(٢٠)

يُكَبِّلُني الحُزْنُ في جِذْعِ جُمَّيْزَةِ الهَمِّ بالذِّكْرَياتِ
التي لا تَمُدُّ يَدًا كَيْ تَفُكَّ قُيُودي ...
وأَنْظُرُ حَوْلِيَ أَلْقَى مَوَاكِبَ دُنْيا السَّعَادَةِ
يُطْرِبُهَا لَحْنُ نِسْيَانِ ثَدْيِ الأُمُومَةِ
قَدْ طَالَ شَعْري
وطَالَتْ أَظَافِرُ كَفَّيَّ
والجِذْعُ لا يَتَعَاطَفُ مَعْ مِحْنَتي
والقُيُودُ تُؤَكِّدُ قَبْضَتَهَا حَوْلَ خَصْري وكَتْفِي
وتَرْفُضُ أَنْ تَرْتَخِي دُونَ أَنْ أَتَحَرَّكَ نَحْوَ التَّحَرُّرِ
والعَزْمُ في كُلِّ جِسْمِي انْكَسَرْ ...
يُكَبِّلُني الحُزْنُ في جِذْعِ جُمَّيْزَةِ الهَمِّ بالذِّكْرَياتِ
كَنَغْمَةِ فَرْحٍ يُجَمِّدُهَا الحُزْنُ فَوْقَ الوَتَرْ ...
أُحِسُّ بِفَرْحِي حَرَامًا عَلَيَّ
لأَنِّي ذَكَرْ ...!

(٢١)

أَيَا كُلَّ مَوْؤُودَةٍ فِي التُّرَابِ بِكُلِّ عُصُورِ الجَهَالَةِ
لا عَيْبَ أَنْ تُوأَدِي
إِنَّ بَعْضَ الحَيَاةِ انْكِسَارْ ...
أَيَا كُلَّ مَقْتُولَةٍ بِاسْمِ سُوءِ السُّلُوكِ هَنِيئًا
فَبَعْضُ المَمَاتِ انْتِصَارْ ...
أَيَا كُلَّ مَدْفُونَةٍ فِي البُيُوتِ بِتُهْمَةِ نَقْصِ العُقُولِ اصْطِبَارًا
فَبَعْضُ عُقُولِ النِّسَاءِ تُدِيرُ أُمُورَ الذُّكُورِ
وبَعْضُ الذُّكُورِ حِمَارْ ...
أَيَا كُلَّ مَضْرُوبَةٍ لا بُكَاءَ
فَذَنْبُ الأُنُوثَةِ فَخْرٌ
وبَعْضُ الذُّكُورَةِ عَارْ ...!

(٢٢)

فُؤَادِي أَمَامَ الجَمِيعِ اعْتَرَفْ ...
بِأَنَّ الأُنُوثَةَ فَخْرٌ إِذَا اقْتَرَنَتْ بِالشَّرَفْ ...
وأَنَّ الذُّكُورَةَ سُمٌّ
إِذَا مُزِجَتْ بِالصَّلَفْ ...!

(٢٣)

أُرَاسِلُ أُمِّيَ عَبْرَ بَرِيدِ المَنَامِ
أَقُولُ لَهَا : هَلْ عَرَفْتِ السَّعَادَةَ؟
تَهْتِفُ : بَعْدَ المَمَاتِ عَرَفْتُ ...!
تُسَائِلُنِي : هَلْ ذَرَفْتَ دُمُوعًا لِمَوْتِي؟
فَأَصْرُخُ : بَلْ صِرْتُ دَمْعًا على خَدِّ هَذا الزَّمَانِ انْذَرَفْتْ ...!
أُسَائِلُهَا : هَلْ تُرِيدِينَ شَيْئًا مِنَ البَيْتِ؟
تَعْجَبُ ثُمَّ تُسَائِلُنِي : هَلْ خَرَفْتْ؟
أَقُولُ لَهَا : قَدْ غَدَوْتِ كَمِشْكَاةِ حُلْمٍ تُنِيرُ الحَقِيقَةَ
تَبْسِمُ ثُمَّ تَقُولُ : أَجَدْتَ بِمَا قَدْ وَصَفْتْ ...
أَقُولُ لَهَا : كُنْتِ نَهْرًا
فَتَضْحَكُ حُزْنًا وتَسْأَلُ : هَلْ أَنْتَ نَهْرٌ؟
فَأَصْحُو مِنَ النَّوْمِ ثُمَّ أَقُولُ لَهَا :
كُنْتُ نَهْرًا
ولَكِنْ جَفَفْتْ ...!

(٢٤)

يُسَاوِرُ قَلْبي اليَقينُ – وبَعْضُ اليَقينِ وَليدُ الشُّكُوكِ –
بأَنِّي غَفَرْتُ لأُمِّيَ ذَنْبَ الأُنُوثَةِ
ثُمَّ أسيرُ
لتَنْتَابَ قَلْبي الشُّكُوكُ – وبَعْضُ الشُّكُوكِ وَليدُ اليَقينِ –
بأَنِّي غَفَرْتُ لأُمِّي تَحَمُّلَ سَوْطِ المَظَالِمِ عَبْرَ السِّنينَ
فَيَنْتَبِهُ الوَعْيُ – والوَعْيُ زَوْرَقُ زُورٍ يُجَدِّفُ في نَهْرِ غَيْبُوبَةٍ –
كَيْفَ أَغْفِرُ ذَنْبَ الأُنُوثَةِ والذَّنْبُ فَوْقَ احْتِمَالِ الذُّكُورَةِ؟
ثُمِّ أَسيرُ بِغَيْبُوبَتِي – وَهْيَ كَهْلٌ يَسيرُ يَغُوصُ إلى رُكْبَتَيْهِ
بِوَحْلٍ مِنَ الوَعْي –
حَتَّى أُفيقَ لأُدْرِكَ أَنَّ الأُنُوثَةَ لا تُغْتَفَرْ ...!
فَأَشْعُرُ أَنِّي وُسِمْتُ بِذَنْبِ الذَّكَرْ ...!

(٢٥)

تُرَاوِدُني زُرْقَةُ الوَرْدِ – وَرْدِ الجَنَائِزِ – في كُلِّ حينٍ
قُبَيْلَ – وحينًا بُعَيْدَ – صَلاةِ الجِنَازَةِ
في مَسْجِدٍ قَدْ تَهَدَّمَ مِنْبَرُهُ

والإِمَامُ يَصُفُّ الصُّفُوفَ
ويَشْرَحُ كَيْفَ تَكُونُ صَلاةُ الجِنَازَةِ
ثُمَّ يُكَبِّرُ والنَّاسُ مِنْ خَلْفِهِ لَمْ تَزَلْ في الصَّلاةِ بِأَجْسَادِهَا
والقُلُوبُ بَدَدْ ...
تُرَاوِدُني زُرْقَةٌ في جِبَاهِ الذينَ يَمُوتُونَ
أَدْعُو إِلهي : "مَدَدْ" ...
تُرَاوِدُني زُرْقَةُ الوَرْدِ – وَرْدِ الجَنَائِزِ – حينَ صَلاةِ الجِنَازَةِ
أَدْعُو لِمَنْ مَاتِ بالوَرْدِ
ثُمَّ أَسيرُ ولا أُفْتَقَدْ ...!

(٢٦)

أُحَدِّقُ في البَدْرِ كَيْ أَسْتَعِيدَ طُمُوحَ اكْتِمَالي ...
فَيَظْهَرُ لي وَجْهُ أُمِّي ...

(٢٧)

تَوَلِّي النِّسَاءِ القِيَادَةَ ضِدُّ الطَبيعَةْ ...
سَيَحْرِمُ أُمَّتَنَا مِنْ تَفَرُّدِهَا في الطَّليعَةْ ...
ورَأْيُ النِّسَاءِ يُؤَشِّرُ نَحْوَ الخَطِيئَةِ

مِنْ عَهْدِ آدَمَ
لا تَتَّبِعْهُ
فذلكَ ضِدُّ الرُّجُولَةِ
فَاحْذَرْ ...!
فَبَيْنَ الصَّوَابِ وبَيْنَ النِّسَاءِ قَطيعَةْ ...
شُرُوطُ الأُنُوثَةِ في كُلِّ شَهْرٍ تُحَدِّدُ عَقْلَ النِّسَاءِ
ودِينُ النِّسَاءِ كَذلكَ – طِبْقَ شُرُوطِ الأُنُوثَةِ – يَنْقُصُ
فاحْذَرْ مَشُورَتَهُنَّ الفَظيعَةْ ...
حَبَا اللّهُ عَقْلَ الرِّجَالِ الكَمَالَ
لتَغْدُو النِّسَاءُ قَطيعَهْ ...
ورَأْيُ الرِّجَالِ حَيَاةُ الحيَاةِ
لذَلِكَ تَحْيَا الرِّجَالُ كَمَا يَنْبَغِي
وتَمُوتُ النِّسَاءُ لِسَدِّ الذَّريعَةْ ...

(٢٨)

يَعيشُ الذُّكُورُ كَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَعيشَ الرِّجَالُ ولَيْسُوا رِجَالا...
تَمُوتُ النِّسَاءُ كَمَا يَنْبَغِي أَنْ تَمُوتْ ...!

(٢٩)

تُوَبِّخُني في الطُّفُولَةِ أُمِّي فَأَزْدَادُ قُوَّةْ ...
وتَنْهَرُني في الفُتُوَّةِ عَنْ نَسْجِ حُلْوِ الشِّبَاكِ لحُلْوِ الصَّبَايَا
فَيَشْتَدُّ عُودُ الفُتُوَّةْ ...
تُغَذِّي سُلُوكِي بِطَبْعِ الذُّكُورِ – ولَيْسَ بِطَبْعِ الرِّجَالِ –
لأَنَّ الذُّكُورَ قَدِ انْشَغَلوا عَنْ تَوَافِهِ تَعْليمِ جيلٍ جَديدٍ
مَعَاني المُرُوَّةْ ...
تُلَقِّنُني أَنْ أَكُونَ – كَمَا كَانَ كُلُّ جُدُودي – بِسَحْقِ
الأُنُوثَةِ قُدْوَةْ ...
تُبَرِّرُ أُمِّي سُلُوكَ الذُّكُورِ لكَيْ لا يُفَرِّقُ ما بَيْنَ جيلَيْنِ هُوَّةْ ...
وبَعْضُ الأُبُوَّةِ يَقْلَعُ جِذْرَ البُنُوَّةْ ...
وبَعْضُ الأُمُومَةِ يَسْتُرُ عُرْيَ الأُبُوَّةْ ...

(٣٠)

أُطَالِبُكُمْ بالسُّكَاتْ ...
سَنَشْرَبُ نَخْبَ العَطَاءِ على جُثَثِ الأُمَّهَاتْ ...

(٣١)

سَأَرْتَادُ فَوْقَ حِصَانِ الزَّمَانِ خَيَالَ المَكَانْ ...
خَيَالُ المَكَانِ يَعُجُّ بكُلِّ احْتِيَاجَاتِ جِنْسِ الذُّكُورِ
الذي لَمْ يَزَلْ مُطْلِقًا لِحِصَانِ الزَّمَانِ العَنَانْ ...
على الجَسَدِ الغَضِّ حَطَّ الخَيَالُ
ومَا زَالَ يَنْهَشُ عُضْوًا فَعُضْوًا
بِجِسْمِ النِّسَاءِ ولَمْ يَلْقَ عُضْوَ الحَنَانْ ...
على الجَسَدِ البَضِّ سَيْطَرَ عُرْفُ الذُّكُورَةِ
لَكِنْ تَغَرَّبَ خَلْفَ الشُّعُورِ بِبَعْضِ الأَمَانْ ...
وَجُلُّ الذُّكُورِ يُدينُ ولَيْسَ يُدَانْ ...!
وجُلُّ الذُّكُورِ أَتَانْ ...!
وجُلُّ الذُّكُورِ مُرَادِفُهُ خِصْيَتَانْ ...!
وجُلُّ النِّسَاءِ – بِفِعْلِ الذُّكُورِ – بُكَاءُ كَمَانْ ...
وجُلُّ النِّسَاءِ – لأَجْلِ الذُّكُورِ – تَمُوتُ بِلَيْلَةِ عَقْدِ القِرَانْ ...
وجُلُّ النِّسَاءِ – بأَمْرِ الذُّكُورِ – تَمُوتُ ولَيْسَ تَمُوتُ
بيَوْمِ الخِتَانْ ...!

(٣٢)

وتَزْوِيجُ كُلِّ النِّسَاءِ لَقَدْ صَارَ عُرْفَا ...
كَمَنْفَى بِدَاخِلِ مَنْفَى ...!

(٣٣)

مَسَارُ الرِّوَايَةِ لا يَسْتَجِيبْ ...
فَيُهْدَرُ ذِهْنُ الأَديبْ ...
مَسَارُ الحَقِيقَةِ لا يَسْتَجِيبْ ...
فَيُهْدَرُ عَقْلُ الأَرِيبْ ...
نُغَنِّي نَشِيدَ الخُصُوبَةِ في الليلِ
لَكِنْ تَرُدُّ النِّسَاءُ نَشِيدَ النَّحِيبْ ...
على آلةِ الجِنْسِ نَعْزِفُ عَزْفَ انْفِرَادٍ سَرِيعٍ بلَيْلٍ
وفي الصُّبْحِ تُنْسَجُ كُلُّ الأَسَاطِيرِ في مَجْلِسٍ للذُّكُورِ
ولَكِنْ
مَسَارُ الرِّوَايَةِ
أَعْنِي

مَسَارَ الحَقِيقَةِ
لا يَسْتَجِيبْ ...!

(٣٤)

لأَيِّ جِدَارٍ يَسِيرُ قِطَارُ الكِتَابَةْ؟
وفِي أَيِّ أَرْضٍ سَيَسْقُطُ دَمْعُ السَّحَابَةْ؟
سُؤالٌ وَحِيدٌ
لَهُ أَلْفُ أَلْفِ إِجَابَةْ ...!

(٣٥)

تَأَلَّمْ على هَامِشِ العُمْرِ
واتْرُكْ مُتُونَ الحَيَاةِ بِدُونِ التَّأَلُّمِ
كَيْ تَسْتَزِيدَ مِنَ الفَرَحِ
لا تَسْتَجِبْ للدُّمُوعْ ...!
فلا الدَّمْعُ يُلْغِي رَحِيلَ الذينَ تُحِبُّ
ولا الفَرْحُ يُثْبِتُ جُرْمَ احْتِقَارِكَ للآخَرِينَ
ولا الآخَرُونَ يُرِيدونَ حُزْنَكَ (إلا إذا ارْتَحَلُوا)
والرَّحِيلُ سَيَمْنَعُ عَنْكَ مَلامَ الذينَ يُرِيدُونَ مِنْكَ التَّأَلُّمَ
فَافْرَحْ ...!

تَوَجَّعْ لنَفْسِكَ لا الآخَرِينْ ...
ولا تَتَذَكَّرْ سِوى الحَاضِرِينْ ...
ولا تَتَوَقَّعْ – إذا مَا رَحَلْتَ – دُمُوعًا تُجَاوِزُ حَدَّ
مَرَاسِمِ دَفْنِكَ – أَنْتَ الفَقِيدُ –
فَمَنْ سَوْفَ يَبْكِيكَ بَعْدَ انْصِرَافِ المُعَزِّينَ (فَوْرًا!)
لِيَسْتَأْنِفُوا فَرْحَهُمْ غَيْرُ أُمِّكْ ؟
وأُمُّكَ مَاتَتْ ...!

(٣٦)

سَأَبْدَأُ سَرْدَ الحِكَايَةِ – لا مِثْلَمَا عِشْتُهَا –
إِنَّمَا مِثْلَما كَانَ تَرْجِيحُ حُسْنِ الظُّنُونْ ...
سَأَبْدَأُ سَرْدَ الحِكَايَةِ مِنْ دُونِ حَصْرِ الضَّحَايَا ...
ومِنْ دُونِ تَحْرِيضِ دَمْعِ العُيُونْ ...
أَتَتْ للحَيَاةِ فَتَاةٌ – غَدَتْ بَعْدَ ذلكَ أُمًّا –
فَعَاشَتْ حَيَاةَ الكِرَامِ
كَمَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونْ ...
فَلَمْ يَتَسَلَّطْ عَلَيْهَا الذُّكُورُ – أَبًا أَوْ أَخًا أَوْ ... إِلَخْ –
ولَمْ يَتَنَكَّرْ لفَيْضِ عَطَاهَا البَنُونْ ...

قَضَتْ عُمْرَهَا في عَطَاءٍ وأَخْذٍ ...!
فلا هِيَ تُعْطِي بِدُونِ حِسَابٍ
ولا هِيَ تَنْسَى تُعَارِكُ مِنْ أَجْلِ مَا يَغْنَمُونْ ...
وعَاشَتْ – كَمَا يُتَوَقَّعُ – أُمًّا تُعينُ أَبَا
حَاضِرًا في الشَّدَائِدِ
يَعْشَقُ إِرْضَاءَهَا
لَيْسَ يَقْبَلُ إِهْمَالَهَا
ثُمَّ في آخِرِ العُمْرِ قَدْ أُكْرِمَتْ مِنْ جَمِيعِ شُيُوخِ القَبِيلَةِ طُرًّا
وذَاكَ أَقَلُّ أَدَاءٍ لِتِلْكَ الدُّيُونْ ...
فلا هِيَ مَاتَتْ بِأَحْزَانِهَا ...
ولا هُمْ كَذَا يَحْزَنُونْ ...!

(٣٧)

بِرَبِّك يَا مَنْ عَقَلْ
أَهَلْ يَتَسَاوى ...؟
نِسَاءٌ بِصَبْرِ الجَمَلْ
وشِبْهُ رِجَالٍ بِطَبْعِ ابْنِ آوى ...؟

(٣٨)

تُرَى هَلْ سَأَقْدِرُ يَوْمًا بِفَرْحٍ ضَئِيلٍ على سَدِّ مَجْرى الدُّمُوعْ؟
يُدَانُ سِوَايَ بِلَعْنِ الظَّلامِ
وإِنِّي أُدَانُ بِإِيقَادِ ضَوْءِ الشُّمُوعْ ...!
أَنَا سَيِّدُ الحُزْنِ حينَ تَذَكَّرُ أُمِّي
ولَسْتُ بِنَاسِي الرَّحيلِ
ولَسْتُ بِمُنْتَظِرٍ لِلرُّجُوعْ ...
تُرَى هَلْ سَأَقْدِرُ أَنْ أَتَنَفَّسَ والحُزْنُ يَمْلأُ مِنِّي الرِّئَةْ ...؟
أَنَا مَنْ لَعَنْتُ المُدَانَ (البَرِيءَ)
– وكَانَ دَلِيلُ البَرَاءَةِ في خِصْيَتَيْهِ –
وأَشْرَكْتُ في اللَّعْنِ مَنْ بَرَّأَهْ ...
أَعيشُ زَمَانِيَ مَا أَسْوَأَهْ ...
وتَهْلِكُ جُلُّ النِّسَاءِ بِذَنْبِ امْرَأَةْ ...!

(٣٩)

يُحَاوِرُني طَيْفُ مَحْبُوبَةٍ في الظَّلامِ لَهَا وَجْهُ أُمِّي
لِذلكَ مَا زِلْتُ مُسْتَدْرِجًا طَيْفَهَا

كُلَّمَا حَانَ وَقْتُ الخِصَامِ الذي لا يُريدُ الرَّحيلَ
ليَأْتِيَ وَقْتُ الصَّفَاءِ
ولَسْتُ أَرَاني بهَا زَاهِدًا
– قَدْ قَصَدْتُ الطُّيُوفَ –
وإنِّي مَلَلْتُ ارْتِيَادَ الخَيَالِ
وتَرْكِيبَ مَعْشُوقَةٍ في الظَّلامِ لَهَا وَجْهُ أُمِّي ...
لذلكَ قَرَّرْتُ هَجْرَ جَمِيعِ طُيُوفِ النِّسَاءِ ...
سِوى طَيفِ أُمِّي ...!

(٤٠)

عَشِقْتُ الغِنَاءَ لأنِّي ارْتَوَيْتُ بتَغْرِيدِ أُمِّيَ :"نَامْ" ...!
على شَفَتَيْهَا السَّلامْ ...
على سَائِرِ الأُمَّهَاتِ السَّلامْ ...
على رَاحِلِ الأُمَّهَاتِ السَّلامْ ...!

(٤١)

تُفَاجِيءُ بَعْضُ دَوَاعِي السُّرُورِ بَرَامِجَ حُزْني المُقِيمِ
فَلا أَسْتَجِيبُ بتَأْجِيلِ بَنْدِ بُكَاءٍ
ولا رَفْضِ دَعْوةِ دَمْعٍ

ولا أَخْذِ أَيِّ إِجَازَةِ فَرْحٍ مِنَ الحُزْنِ
لا أَسْتَسِيغُ الخُرُوجَ سِوى كَيْ أَزُورَ مَنَاطِقَ حُزْنٍ
أُرِيدُ تَكَشُّفَهَا رَغْمَ بُعْدِ المَسَافَةِ
ما بَيْنَ حُزْني وحُزْنِ الجَمِيعِ
لأَنِّي تَحَوَّلْتُ حُزْنًا بِكَفَّيْهِ مِسْبَحَةٌ
بَاتَ يَلْهَجُ في ذِكْرِهِ
باسْمِ أُمِّي ...!

(٤٢)

أَنَا لا أَهَابُ السُّؤَالَ ولَكِنْ
مَلَلْتُ انْتِحَارَ الإِجَابَاتِ دَوْمًا على شَفْرَةِ الأَسْئِلَةْ ...
أَجَبْتُ – بِشَتَّى المَنَاهِجِ – عَمَّا يُؤَرِّقُ عَقْلِيَ
مَا بَيْنَ مَسْقَطِ رَأْسِيَ عِنْدَ الوِلادَةِ طِفْلاً
ومَا بَيْنَ مَسْقَطِ رَأْسِيَ بالمِقْصَلَةْ ...
تَحَيَّزْتُ للحُبِّ
والكُرْهُ يَجْمَعُ مِنْ خَلْفِهِ كُلَّ مَنْ يَرْتَضُونَ الغَنَائِمَ
– كَانُوا ذُكُورًا –
كَجَيْشٍ يُعَرْبِدُ في مَقْتَلَةْ ...

لذَلِكَ أَلْفَيْتُ نَفْسِيَ صُحْبَةَ رَكْبِ النِّسَاءِ
أَسيرًا على مَرْكَبٍ للعَبيدِ
أُعَاني بِقَبْوٍ – وَهُنَّ يُعَانينَ أَيْضًا –
جُمُوحَ الذُّكُورِ
الذينَ يُعَانُونَ – أَيْضًا –
جُمُوحَ البَلَهْ ...
ومَا زِلْتُ أَسْأَلُ نَفْسِي
لماذا تَمُوتُ النِّسَاءُ بِقَبْوِ العَبيدِ؟
وظُلْمُ الذُّكُورِ النِّسَاءَ تُرَى رَبُّنَا أَنْزَلَهْ؟
تَمُوتُ الإِجَابَاتُ دَوْمًا على شَفْرَةِ الأَسْئِلَةْ!

(٤٣)

تَوَاطَأْتُ مَعْ طَيْفِ أُمِّي ...
فَأَتْرُكُهُ في المَسَاءِ يَزُورُ مَنَامِي لِنِسْيَانِ هَمِّي ...
ويَتْرُكُني في الصَّبَاحِ أُحَدِّقُ فيه لأَطْرَحَ غَمِّي ...!

(٤٤)

تُدَاهِمُنِي رَغْبَتِي في البُكَاءِ ولَسْتُ أُطيعْ ...
وتَسْقُطُ أَوْرَاقُ أَشْجَارِ حَقْلِيَ رَغْمَ الرَّبيعْ ...

عَلَيَّ ووَحْدي تَقُومُ القِيَامَةْ ...!
أَنَا مَنْ يُسَيِّرُ بالشِّعْرِ رَكْبَ النُّجُومِ – إِذَا مَا أَرَادَ – أَمَامَهْ ...
تُرَاوِدُني رَغْبَتي في البُكَاءِ فلا أَسْتَطيعْ ...
فَيُطْلِقُ شِعْري سِهَامَهْ ...
فَأَبْكِي بِدَمْعِ الحُرُوفِ أَمَامَ الجَميعْ ...!

(٤٥)

ويَجْنَحُ للسِّلْمِ جُلُّ النِّسَاءِ
وطَبْعُ الذُّكُورِ ادِّعَاءٌ بِهُدْنَةْ ...
يُفَاجِئُ قَصْفُ الذُّكُورِ النِّسَاءَ
فَتَلْقَى الضَّحَايا (النِّسَاءَ)
ونَقَّالَةَ المُسْعِفينَ (الذُّكُورَ!)
تُمَارِسُ دَوْرًا سَخيفًا تَقَرَّرَ مِنْ أَجْلِ تَفْريغِ شُحْنَةْ ...
تَلُوحُ النِّسَاءُ كَسِرْبِ طُيُورٍ على الغُصْنِ
ثُمَّ تَجِيءُ الذُّكُورُ لتَقْطَعَ غُصْنَهْ ...
تَجُودُ النِّسَاءُ بِمِنْحَةِ حُبٍّ
ودَوْمًا تَرُدُّ الذُّكُورُ بِمِحْنَةْ ...
وعِنْدَ الذُّكُورِ القَبيحَةُ مَذْمُومَةٌ

والجَميلَةُ فِتْنَةْ ...
كَأَنَّ الذُّكُورَةَ طُهْرٌ لِمَنْ حَازَهَا
أَوْ كَأَنَّ الأُنُوثَةَ لَعْنَةْ ...!!!

(٤٦)

ونَاري بِصَدْرِي تُحَاوِلُ بالشَّعْرِ نَفْثًا ...
ومَنْ يَمْدَحِ الرَّاحِلاتِ يَحُثُّ الوُقُوفَ بِوَجْهِ التَّقَاليدِ حَتَّا ...
أُحِبُّكِ أُمِّي
حَيَاةً
ومَوْتًا
وبَعْثًا ...
ومِثْلُكِ لَيْسَ يَمُوتُ
ولَكِنَّهُ سَوْفَ يُرْثَى ...
سَأَرْثِي النِّسَاءَ جَميعًا
لأَنَّكِ أُنْثَى ...!

(٤٧)

وكَيْفَ سَأُدْرِكُ بَعْضَ ارْتِياحْ ؟
أَنَا المُتَفَرِّدُ في نَظْرَتي للأُمُورِ

كَجِذْعٍ
بِنَفْسِ الجُذُورِ
ونَفْسِ اللِّحَاءِ
ونَفْسِ الغُصُونِ
يُفَاجَأُ في كُلِّ يَوْمٍ بِجِيلٍ جَديدٍ يُعَرْبِدُ مِنْ عَاتياتِ الرِّياحْ ...!
أَنَا مَنْ تَنَزَّهَ حُزْني عَنِ الفَرْحِ
حَتَّى غَدا الفَرْحُ غَيْرَ مُتَاحْ ...
أَنَا مَنْ سَلا أَنَّ سُلْوَانَهُ وَاقِعٌ في حُدُودِ المُبَاحْ ...
أَنَا مَنْ تَشَكَّلَ حُزْني فَأَمْسَى لَهُ أَلْفُ وَجْهٍ
فَحينًا يَجيءُ بِوَجْهِ الجَوَاري المِلاحْ ...
وحينًا بِوَجْهِ المَسَاءِ
وحينًا بِوَجْهِ البُيُوتِ
وحينًا بِوَجْهِ السَّحَابِ
وحينًا بِوَجْهٍ غَرِيبٍ تَشَكَّلَ مِنْ خَالداتِ الجِرَاحْ ...
تَكَرَّرَ حُزْني بِحُزْنٍ وَحيدٍ
كَأَنِّي أُطَالِعُ نَعْيًا لأُمِّي على صَفْحَةِ الوَفَياتِ بِكُلِّ صَبَاحْ ...!

(٤٨)

ومَذْهَبُ جُلِّ النِّسَاءِ الرِّضَا بالفُتَاتْ ...
لكَيْ يَتَحَوَّلَ مَجْرى الثَّرَاءِ إلى أُخْرَيَاتْ ...!

(٤٩)

يُحَاصِرُني الحُزْنُ بَعْدَ الرَّحيلْ ...
أُحَاوِلُ تَصْويرَ شَوْقي لأُمِّي بِشِعْرٍ أَصيلْ ...
فَأَكْتُبُ :
"إِنَّ رَحيلَكِ أُمِّي كَلَيْلٍ طَويلٍ طَويلْ"
وأَشْطُبُ مَا قَدْ كَتَبْتُ ...!
فَذَلِكَ مُسْتَهْلَكٌ
لا يُعَبِّرُ عَنْ حَسْرَةِ الحُلْمِ في يَقْظَةِ المُسْتَحيلْ ...!
فَأَكْتُبُ :
" إِنَّ رَحيلَكِ أُمِّي كَهَجْرِ الحِصَانِ الصَّهِيلْ"
وأَشْطُبُ مَا قَدْ كَتَبْتُ
لأَنَّ الخَيَالَ يُزَوِّرُ حَجْمَ الفَجيعَةِ
بَلْ قَدْ يُدَلِّسُ في وَصْفِ أَمْرٍ جَليلْ ...

سَأَنْطِقُ بالحَقِّ دُونَ مَجَازٍ
فَلَيْسَ لَهُ مَنْ بَدِيلْ ...
رَحيلُ كَثيرٍ مِنَ الأُمَّهَاتِ جَريمَةُ قَتْلٍ
وتَمَّتْ لِعَجْزِ القَتِيلْ ...
ومَرَّتْ بِصَمْتِ الشُّهُودِ
وطَمْسِ الدَّليلْ ...!

(٥٠)

لأَجْلِكِ أُمِّي أُضَحِّي بِشُحِّي ...
ولَسْتُ أُضَحِّي بِشُحٍّ ...

(٥١)

يُرَاقِبُني طَيْفُ أُمِّي الذي لَمْ يَزَلْ شَكْلُهُ بَيْنَ سِنِّ الثَّلاثينَ
والأَرْبَعينَ
الذي فيهِ قَدْ أَنْجَبَتْني ...
على نَفْسِ صُورَتِهَا في الشَّبَابِ بِحُلْمِي أَتَتْني ...
تُرَى هَلْ يُرَاقِبُني طَيْفُهَا ...؟

أَوْ تُرَانِي بِوَهْمِ القَصِيدَةِ أَسْبَحُ ؟
أَوْ ذِكْرَيَاتُ الطُّفُولَةِ قَدْ أَثْقَلَتْنِي ؟
أَنَا مَنْ تَأَلَّمَ مُنْذُ ابْتِدَاءِ الكِتَابَةِ مَا بَيْنَ شَرْحٍ وَمَتْنِ ...
أَنَا مَنْ تَشَرَّدَ بَيْنَ النِّسَاءِ حَنِينًا لِمَنْ أَرْضَعَتْنِي ...!

(٥٢)

وَمِنْ ثَدْيِ أُمِّي رَضَعْتُ
وَمَعْنَى الرِّضَاعَةِ حَرْفٌ يُعَانِقُ حَرْفًا
وَحَرْفًا
وَحَرْفًا
لِيُصْبِحَ مَعْنًى
وَمَعْنًى
وَمَعْنًى ...!
وَمَعْنَى الرِّضَاعَةِ مَعْنًى تَرَكَّبَ مِنْ أَلْفِ مَعْنًى
وَمَعْنَى الرِّضَاعَةِ يَعْنِي زِرَاعَةَ بِذْرَةِ مَعْنًى بِأَرْضِ الطُّفُولَةِ
(وَهْيَ تُخَصَّبُ عَبْرَ الحَلِيبِ)
فَيَكْبُرُ فِي الطِّفْلِ مَعْنَى الأُمُومَةِ

وَهْوَ يُشَكِّلُ جُزْءًا لِكُلٍّ وَكُلاً لِجُزْءٍ
كَطَعْمِ الحُمُوضَةِ فِي لَسْعِ لَيْمُونَةٍ
أو كَطَعْمِ السَّعَادَةِ بالحُبِّ
أو مِثْلِ مَزْجِ اصْفِرَارٍ على زُرْقَةٍ كَيْ تُكَوِّنَ مِنْ مَزْجِهَا
خُضْرَةً
فَالْتِقَامُ ثُغُورِ الصِّغَارِ لأَثْدَاءِ تِلْكَ النِّسَاءِ
يُحَقِّقُ مَعْنًى
لَهُ أَلْفُ مَعْنًى
وَمَعْنَى امْتِزَاجِ المَعَانِي بِلَحْظَةِ لَقْمِي لِثَدْيِكِ أُمِّي
يُفِيدُ بِأَنِّي فَقَدْتُ أُلُوفَ المَعَانِي
بِفُقْدَانِ أُمِّي ...!

(٥٣)

على حَلْمَةِ الثَّدْيِ يَهْبِطُ ثَغْرُ الرَّضِيعِ يُنَبِّهُ وَعْيَ الحَوَاسْ ...
فَيُصْبِحُ كُلُّ الطَّعَامِ وَكُلُّ الشَّرَابِ فُرُوعًا
وَيَبْقَى الحَلِيبُ الأَسَاسْ ...
تَنَقَّلْتُ مِثْلَ الفَرَاشَةِ مَا بَيْنَ أَثْدَاءِ تِلْكَ النِّسَاءِ

أَبيتُ على ثَدْيِ "دينا"
وأَمْرَحُ في ثَدْيِ "لُبْنَى"
وأَمْخُرُ أَثْدَاءَ "سَلْمَى"
وأَرْتَعُ في ثَدْيِ "سَالي"
وأَسْبَحُ في ثَدْيِ "لَيْلَى"
ولَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَنَامَ على ثَدْيِ أُنْثَى
سِوَى ثَدْيِ أُمِّي ...!
لأَنِّي على ثَدْيِ أُمِّي عَرَفْتُ النُّعَاسْ ...!
قَصيدَةُ ثَدْيِ الأُمُومَةِ أَصْلٌ
وأَثْدَاءُ كُلِّ النِّسَاءِ اقْتِبَاسْ ...!
وثَدْيُكِ أُمِّيَ أَصْلٌ تَعَذَّرَ يَجْري عَلَيْهِ القِيَاسْ ...!

(٥٤)

أَنَا الأَرْضُ تُسْقَى حَليبًا
وثَدْيُكِ صَارَ الغَمَامْ ...
وحينَ رَحَلْتِ
وَصَلْتُ لِسِنِّ الفِطَامْ ...!

(٥٥)

صَبَاحٌ جَميلٌ كَئِيبْ ...
جَمِيلٌ بِمَا فيهِ
لَكِنْ
كَئِيبٌ بِمَا فِيَّ
قَرَّرْتُ أَرْسُمُ أُمِّي
فَحَوَّلْتُ أُفْقِي قُمَاشًا
وأَحْضَرْتُ قَوْسَ قُزَحْ ...
وحَدَّدْتُ مَنْظُورَ لَوْحَةِ أُمِّي وَأَلْوَانَهَا
سَوْفَ أَرْسُمُهَا وَهْيَ تَبْسِمُ لي في فَرَحْ ...
ومَنْظُورُهَا مُسْتَوٍ
بارْتِفَاعِ عُيُونِ الصِّغَارِ
وتَلْبَسُ شَالاً مِنَ القُطْنِ
فيهِ اخْضِرَارُ النَّخِيلِ
وفيهِ اصْفِرَارُ البَلَحْ ...
تَوَالَتْ خُطَى اللَّوْنِ فَوْقَ القُمَاشِ
وكَفِّيَ عَبْرَ اللَّيالي تُدَوِّنُ خَطًّا

فَخَطًّا
فَخَطًّا
كَزَرْكَشَةٍ فِي رِدَاءْ ...
وحينَ انْتَهَيْتُ
وَجَدْتُ أَمامي السَّمَاءْ ...!
هِيَ الفَوْقُ لا فَوْقَ مِنْ فَوْقِهَا ...
وهْيَ حينَ الثَّنَاءِ
ثَنَاءُ الثَّنَاءْ ...
وحينَ العَطَاءِ
عَطَاءُ العَطَاءْ ...
وحينَ الدُّعَاءِ
مُجَابُ الدُّعَاءْ ...
وحينَ الفِرَاقِ اللِّقَاءْ ...
وحينَ الظَّلامِ الضِّيَاءْ ...
أَنَا الأَرْضُ
أُمِّي السَّمَاءْ ...
ومَا زِلْتُ أَمْلأُ مِنْكِ الإِنَاءْ ...

ومَا زِلْتُ تَحْتَ جَنَاحِكِ أُمِّي
كَأَرْضٍ تُرَوَّى بِأَعْذَبِ مَاءْ ...
ومَا زِلْتُ أَشْكُرُ أَنَّكِ أُمِّي
ومَا زِلْتُ أَشْكُرُ أَنَّكِ لَمْ تَسْتَسِيغِي الرَّحيلَ
وأَنِّيَ حِينَ رَثَيْتُكِ
لَمْ تَسْتَسِيغِي الرِّثَاءْ ...
لِذَلِكَ حينَ رَحَلْتِ
رَثَيْتُ جَميعَ النِّسَاءْ ...!

بدأت وتمت في القاهرة ديسمبر/ ٢٠٠٧